الولادة والموت

قصص

أحمد عوده

الولادةُ والموت

قصص

الولادةُ والموت

قصص

أحمد عودة

الأعمال الكاملة «6»

الطبعة الثانية:

دارُ الجيل العربي للنشر والتوزيـع.

2022م.

Mobile : 8789591 79 00962

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

رقم الإيداع دمشق: 6/2000/ 1982

مراجعة وتحقيق: مظهر عاصف.

تصميم الغلاف: سمير الكرّاد.

جميعُ الحقوق محفوظة للجمهور.

تنويه عابر:

يُسمحُ للقارئ بإعادة إصدارِ هذا الكتاب وأيِّ جزءٍ منه أوتخزينه واستنساخه ونقله، كليّا أو جزئيا، وفي أيِّ شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آلية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، والتسجيل واستخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يلزم الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر بناء على رغبة المُحقّق.

التعريفُ بالكاتب:

هو الأديبُ الأردني الراحل «أحمد عودة» من مواليد قرية إذنبَّة -الرملة- فلسطين المحتلّة- عام 1945. ويُعد أحد أعمدة رابطة الكتاب الأردنيين، وأحدَ مؤسسيها الأوائل، وعضوًا في اتحاد الكتّاب العرب منذ عام 1982. احترفَ كتابةَ القصة والرواية ونصوصِ المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، ويعتبرُ من روّاد المشهد الثقافي الأردني فقد كانَ يرفدُ الصحف والمجلات الأردنية والعربية بمقالات نقديّة أدبيّة، وببعض البحوث الفكرية واللغوية.

تمَحوَرت أعمالُه الورقية حول القضية الفلسطينية بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونة الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كل مكان، ناهيك عن قضايا الأمة العربية بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، وامتازت لغتُه العربية بالجزالة السلسلة كانعكاسٍ تام لمهنتهِ التي مارسها كمدرسٍ لَها في مدارس القدس وعمّان حتى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبي.

الأديبُ من أوائل الروائيين العرب الذين اتجهوا لكتابة المسلسلات التلفزيونية مواكبةً منهم لعصر الصورة والصوت، ومن الرّواد الذين نقلوا اللهجةَ الأردنية العامية والريفية والبدوية عبر مسلسلاتهم إلى الشاشات العربية.

هذا وقد مارس الكتابةَ الإبداعية طوال حياته قبل أن توافيهِ المنية في «حي الربوة- ماركا الجنوبية- عمان- الأردن». في مساء 9 نيسان من عام 2016م.

مؤلّفاته الورقيّة «الطبعة الأولى»:

حين لا ينفع البكاء- قصص- عمان- مكتبة الشرق- 1973.

زعتر التل- قصص- عمان- رابطة الكتاب الأردنيين- 1979.

المنعطف- قصص بغداد- وزارة الثقافة- 1980.

الولادة والموت- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب -1982.

جمجوم- قصص- بغداد- وزارة الثقافة والإعلام- 1982.

ساعات الصفر- رواية- بيروت- دار الوحدة- 1983.

الفواصل- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب العرب- 1984.

الكلب المخدوع- قصص للفتيان- عمان- دار ابن رشد- 1986.

عيون المدافع- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب العرب- 1995.

الفخ- قصص- عمّان- وزارة الثقافة- 1996.

الباشكار- رواية- عمّان- دار الينابيع- 1996.

مسرحيات: الكنـــــز؛ أصـل المسألـة؛ شلــة الأنـس.

أفلام تلفزيونية:

المريض.

عذابـات حلُّـوم.

طلقـة الرحمـة.

الانتظـار.

أهم المسلسلات المُتلفزة:

ويبقـى الأمــل- باللهجة الأردنية.

الفـرح المنسـي- باللهجة الأردنية.

الحائـــــر- باللهجة الأردنية.

حــارة الزيـن- باللهجة الأردنية.

الريحانيـــة- باللهجة الأردنية.

خط النهاية- باللهجة الأردنية.

خــط البدايـة - باللهجة السعودية.

الزمـــن دوار- باللهجة السعودية.

مرايــا الحـب- باللهجة المصرية.

هــذا قـراري- باللهجة السورية.

الأمانــي المـرّة- باللهجة السورية.

الفهرس

Contents

مقدمة: 2

أزمنةُ الصحو 5

الولادةُ والموت 17

لارا المنافي 37

الرمادُ الساخن 50

النوارس 58

ما قبل الرحلة 65

البحثُ عن راية 82

الشمسُ كانت هناك 100

مقدمة:

إن كانت هناك مجموعةٌ قصصيّة تصلحُ أن يُقالَ عن بعضِ قصصها بأن سطورَها ترابُ مخيم «عين السلطان الريحاوي»، وحروفَها حصاه؛ وحَركاتِها بحرُ يافا ونسيمه فهذه المجموعة بلا شك.

إنكَ أمام قصص مُتحدّرة الحنين من كلِّ سطر وحرف ووصف فيها، وحيث إن الحزنَ فيها يقابله الأمل، والوجعَ يقابلُه الحلم فمن الطبيعي أن تكونَ أحداثُ الحبِّ والموت والندم ملاحمَ مسرحيةٍ تُعرض في أجواء المخيم والغربة؛ والدروبِ التي سلكَها النازحون فيما بينهما.

وقد تكاد تلمسُ بُحَّة النازح، أو تشعر بدمعةٍ حرّى سفكتها عين مشتاقة إلى الأرض على يديك، ولربما نفَرت الأوراق بدم الشهداء فلطّخت ثيابَك لتنصهرَ روحُك مع مجريات أحداث هذه القصص؛ التي تمثل جانبًا هامًّا من تاريخ الصراع بين صاحب الأرض ومُغتصِبها... بين صاحب الأرض الذي هُجِّر يومًا من أرضهِ في

مدن الساحل وسكن المخيم؛ وبين مَن لاحقه بعدها ليطردَه من مخيم كان أقرب إلى مدنِ الساحل من الغربة.

- قتلوا سرحان... قتلوه.

وإذ تردُ هذه الجملة في إحدى القصص إلّا أنها ستكررُ نفسها يومًا بعد عامٍ واحد حيث يفتتحُ بها الأديب روايته «ساعات الصفر» دون زيادة أو نقصان. وكأن تلك الرواية امتدادٌ لأحداث لم تقل هنا بعد.

ولأن هذه القصص تعتبر تاريخا حيًّا من الأديب كشاهدِ عيان على نكبة النزوح والتهجير؛ فقد وصفَ بعضَ المظاهر والتراثيات التي عاصرها شابًّا في المخيم، وإن كانت الصدارة فيها للإنسان وعلاقته مع وطنه؛ أكثر من علاقة الإنسان مع نفسه. حيث ارتكزت الفكرة العامة على أن القيمةَ الحقيقة له تكمن في تواجده في المساحة التي شغلها وأجداده من قديم الأزل.

وبالحديث عن فلسفة الموت التي رافقت جميع الأبطال في المجموعة، فقد بدت ولادةً عبر الرجوع أو الاستشهاد في موطنها، فكانت الغربة موتًا بينما كان البقاء أو الرجوع ولادة.

أمَّا النسخة التي اعتمدتها في إعادة تحقيق وطبع هذه النسخة فقد كانت نسخةً موقعة ومهداة إلى الأديب القاص «يوسف ضمرة». مُعتمدًا على بعض النصوص المنشورة في الصحف أو ضمن مسودات الكاتب الخطيّة في حال لم تكن بعض الكلمات واضحة بسبب القِدم وهنَّات الطباعة؛ علمًا أن طبعَتها الأولى كانت ضمن منشورات «اتحاد الكتاب العرب- دمشق» عام 1982م... هذا ومن المؤسف أن جميعَ النسخ التي أُرسلت للأديب آنذاك تعرّضت للمصادرة ومنع النشر؛ لسبب ما زلت أجهله أو أردتُ أن أجهله حيث وقفت على هذه المعلومة في رسالة للأديب بعثَ بها لصديقٍ دمشقي دون ذكر السبب.

مظهر عاصف

أزمنةُ الصحو

كفَّت ساقاه الذابِلَتان عن السير فجأةً تعلنان العصيان والتمرّدَ على خروجه من مُخيم عين السلطان؛ استجابةً لسيل المهاجرين المُتدفّق شرقا. تحولتا إلى قصَبتين فارغتين تصفّر فيهما ريحُ الإجهاد والتعب، واذ تلفَّت خلفَه لم يصدق أن هاتين الساقين قطعتا الطريق الترابي من المخيم إلى النهر؛ ثم تسلقتا الإسفلت المتعرج من النهر إلى مرتفعات السلط؛ حاملتين جسده الهزيل وأعوامًا تخطّت الستين، إضافة إلى بضعة أرطال من الطحين أقنعه ابنُه بحملها كيلا يموت وكنّته وحفيده جوعا.

تذكر كنَّتَه وحفيدَه الطفل وإذ لم ير أثرًا لهما جحظَّت عيناه فزعًا فسقطت صرّةُ الطحين عن ظهره؛ وراح يحدّق في الإسفلت الأسود المتعرّج مُشتتَ الذهن فيما طائراتٌ حربية تذرعُ السماء مُخلِّفةً قصفًا مُتقطعًا؛ ترجعُه التلالُ الشرقية صدى باهتا في أذنيه المرهَفتين.

وإذ انتبه إلى أنه قد غادر المخيمَ معصوبَ العينين والقلب وأنّه ضيّع كنته وحفيده لطم وجهه بكلتا كفّيه صائحا:

- يا لي من غبي ! لقد أتيتُ أمرًا شططا.

لم يدر معنى لهذه الكلمة الأخيرة ولا من أين واتته وهو شبهُ الأميّ. حفِظ الآياتِ عن ظهر قلب من فم الخطباء في جامع الجزّار بعكا وفي المخيم، يقرؤها مكتوبةً في وقت يعجز عن كتابة حرف منها أو حتى قراءة غيرها، يعجز عن قراءة سطرٍ من تلك الرسائل التي يبعث بها ابنه البكر في الخليج. يدفعها آسفا إلى زوجة هذا الابن. تسترسلُ في قراءتها ثم تصمت فجأة، وحين تستأنف القراءةَ يدرك أنها تقرأ من ذاكرتها كما يحب أن يسمعَ من أخبار زوجها.

أرسل عينيه العائمتين بالدموع في كلِّ اتجاه يفتشُ عنهما في نهر الهاربين. موجات متتابعة ينزف منها التعب والبؤس والموت. لطمَ وجهَه كرّة أخرى على خروجه الأرعن بكنته وحفيده متحديا ابنه الأصغر. قال بصوت مخنوق:

ـ لن أراهم ثانية. لن أرى ابني وحفيدي وكنتي.

بصوت مخنوق راح يرددُ هذه الجملة وقد تمثّلَ له ابنُه وهو يلطمُ حين وقف في طريقه يمنعه من الهرب مع الهاربين.

- اتركني. ألا ترى الطائرات؟ ألا ترى الموت؟

وإذ وصله أزيزُ الطائرات تحلّق على ارتفاعات عالية، ضحك بهستيرية «يا لي من غبي ومجنون! لم تكن حربًا بمعنى الكلمة. لم ترَ الطائرات في غير اليوم الأول. كانت تُلقي بقنابلها بعيدًا عن المخيم. ما حدث في أيّار كان أعتى وأشد ومع هذا ترددتَ في الخروج بزوجتك وولديك الصغيرين؛ إلى أن حسم الرصاصُ ترددك حين طوى عنقَ زوجتك فناخت على الأرض جثة هامدة...

عندها لم يكن هناك مجالٌ للبقاءِ والموتُ من نصيبِ من يبقى. أمّا حزيران هذا فشهر كبقية الشهور ثارت المعاركُ فيه وفيها عبر الإذاعات والصحف وحسب. كيف لم تنتبه لهذه الحقيقة؟ كيف لم تتعلّم من رحلة أيّار كما قال ابنك الأصغر في لحظة جنونك المطبق؟

كنتَ في المخيم على الأقل تنتظر العودة إلى عكا. أما هنا فماذا تنتظر؟ أن تعودَ إلى المخيم وحقول الزوابع الثائرة بالموت؟! مجنون أنت! لولا أنك مجنون لما هربت كالفأر، ولمَا قطعتَ هذه المسافات بجسدك الهزيل وأعوامك الستين. كل عام منها كان

بمثابة منعطف خطر يعلّمك المزيد؛ لا أن ينتزع منك العقلَ ذرةً ذرةً فتحمل بين كتفيك هذا الرأس الفارغ...

تساقطت أسنانُك ولكن للأسف لم تتعلم. شيء مؤسف ألا تتساقطَ الرؤوسُ الفارغة كما تتساقط الأسنان. كانوا يسمونك في المخيم بالشيخ العاقل المتَّزن... تحلُّ مشكلاتِهم الصغيرة والكبيرة. تقود جاهاتِ الزواج والطلاق، وتفصل بين المتحاربين على بضعة أمتار من الأرض الجيرية الميتة...

كنتَ تحل المشكلات كما يقولون بعقل نيّر، فأين ذهب هذا العقل وأنت تهرب بهذا القميص الأزرق وهذا السروال؟! نسيتَ كوفيتك وعقالك من اللهوَجة إلى أن جاءت بهما كنتك... طيّبة هذه الكنة. طيّبةٌ كثيرا وقد خدعتَها. خدَعَتها فطنتُك الكاذبة. لم تكن تريد أن تغادرَ المخيم فذكّرتها بالموت، ذكّرتها بزوجها في الخليج فحمَلَت ابنها وتبعتك....

ها أنت ضيّعتها وضيَّعت حفيدك. آخر عهدك بهما عند الجسر المتهدم. تركت إحدى ذراعيك تسندها بينما ذراعك الأخرى متشبثة بصرة الطحين؛ كيلا يبتلعها النهر الهادئ كذئبٍ مُسبِل العينين بينما أنيابه متحفّرة للانقضاض.

ضحايا هذا النهر لا تُحصى، وكلّها من الصيادين والعمال والباحثات عن الحطب للمواقد والأفران الصغيرة. لماذا لم تَزِل قدمك فيبتلعك النهرُ فيما ابتلع؟ لقد صدَّقتَ كذبَ الإذاعات بأنها الحرب والموت. لم تر حربا أو موتا، سوى بعض القنابل البعيدة وجثثًا هلَكَت على قارعة الطريق الممتدة كالأفعى إلى الشرق...

ربما قتلتها رصاصاتٌ طائشة وربما هلكَت جوعا أو عطشا أو تعبا. فلماذا لا تهلَك أيها الشقيُّ لهذه الأسباب؟ بل لماذا لم يسعفك عقلُك النيّر؟ أين ذهب هذا العقل حين هربت مِن حيث كان يجب عليك البقاء؟

كان هناك في المخيم على الأقل سقيفةٌ تؤويك؛ أما هنا فالأيام الآتية تتدافع إلى مغارةً معتمة... الداخلُ إليها مفقود، والخارجُ منها أعمى البصيرة والبصر. لقد جربت هذا الوضع المحزن في أيار قبل أن تعرف قدماك طريق المخيم حيث حطّت أفواج المهاجرين طيورا أرهقها السفر والخوف ورحلة الضياع والمجهول.

كان ولداك طفلين، الأصغرُ منهما فارق لتوه مرحلة الحبو على أربع. لم تحمل غيرهما من البيت المُشرف على شاطىء عكا

حيث تتكسر الأمواج في الصباحات الباكرة الندية. ظللت يومها تتلفتُ وراءك وتهم بالعودة إلى عكا حيث الشاطئ وجامع الجزار، حيث واريت زوجتك...

ظلّت العودةُ تغازلُك وتفتحُ الطرقَ المسدودة حتى بعدما وجدتَ نفسك في المخيم بخيامه المنصوبة ربما منذ الأزل، ربما منذ أن حمَلَت العملةُ الفضيّة ثلاثَ لغات، إحداها تلك التي تقرأ بعضا منها ولا تكتبها...

ظلّت العودةُ قاربَك الذي تبحر منه تاركًا شواطئ ضعفك إلى شواطئ عكّا؛ دونَ أن تسمحَ لأمواج الآخرين بتمزيق أشرعة حلمك؛ حتّى وطأَت قدماك أرض أريحا، وجلستَ بولديك في ظلِّ شجرة ورافة اتقاءً للحر.

حينها كانت الموجة العاتية الأولى التي حطّمت كلَّ شيء وقد خرجَ عليك رجلٌ أسمر، محروق الوجه، يسبق صوتَه الغاضبَ أنفٌ ضخم معقوف.

ـ ماذا تفعلون هنا؟ هيا انصرفوا. بِعتُم أرضَكم وجئتم تسرقون أرضَنا! هيا انصرفوا.

ما زال وجه ذلك الرجل محفورا في ذاكرتك التي لم تتعلم الكثير. لقد رأيتَه بعدها أكثر من مرة في بساتين أريحا، في أريحا نفسها، وعرفت أن اسمه «الريحاوي».

ربما كان اسمًا ينسحبُ على الكثيرين هناك؛ لكنه ظلّ يعني لديك ولغيرك في المخيم أن من يترك أرضَه لأي سبب يستحقُ الخارجين عليه بالحقد والاتهامات الجائرة، يستحق أن يُشوى في نار جهنم، وأن تميدَ به الأرضُ وتتحول إلى زلزال لا يهدأ. كنت تترحمُ على ذاك الرجل لأنك تعرفُ أن أطماع اليهود لا تنتهي عند حدود مرسومة.

وها هي ذي نبوءتك قد تحققت. ذهَبَت أريحا فيما ذهب، فكيف لم تتعلم من تجاربك؟

بل كيف خدعتَ الناسَ زمنا حتـى سموك بالعاقل المتزن؟ ربما اكتشفوا زيفَك أخيرا كما اكتشفتَ هذا الزيف مُتأخرا. لهذا يمرون عنك فرادى و جماعات دون أن يعيروك اهتماما، دون أن تحظى بطرح السلام...

تستحقُ هذا وأكثر. تستحق أن تدق عنقك وتموت كالكلب الطريد. يستحق هؤلاء أيضا أن يموتوا كالكلاب الضالة. لقد عضّوا مثلك

أصابعَهم لأنهم لم يموتوا في مدن الساحل، وهاهم يلهثون صعودا في الجبال. أين مرارةُ التجربة؛ وأريحا أقربُ إلى الساحل بكثير من جبال السلط؟ لقد بلغتَ أرذلَ العمر، وأكثرهم بلغ أرذلَه دون أن تمرَّ أو يمروا ولو مرة واحدة من تحت أقواس النصر...

مهزومون دائما ويكابرون. مهزوم أنت أيضًا وتكابر. هزيمتك الأولى حين تركت شاطئ عكا نهبًا لليهود؛ أما الثانية فها أنت تعيشها الآن بلحظاتها القاتلة، وما بين الهزيمتين نكساتٌ متلاحقة يقودها أملٌ مقطوع الرأس.

أجل نكسات، وما تعليلك النفسي بأنك عائدٌ لا محالة وبأنك ربيت ولديك أحسنَ تربية إلا محضُ هراء وتحايل مدروس؛ توَّجتَهُ بهذا الهروب المخزي بنفسك أولا ثم بحفيدك وكنتك. أقنعتَها بأن زوجَها في انتظارها كما أقنعتَ نفسك أن الهرب فيه إنقاذ لحفيدك من الذبح، إنك تهرب بهذا الحفيد قرة عينك وعين والده المغترب في الخليج...

لماذا إذن تركته على الجسر يبكي ربما جوعا أو عطشا؟ وربما احتجاجا على غدر جدّه المأفون! هل كنت خائفا لحظتها؟ أجل هو الخوف والفرحة أنك غادرت أرض الموت. ولكن كم بقى لك من

سنين تعيشها؟ لم يبق شيءٌ يُذكر وأعوام الشباب المتأخر قضيتَها بالانتظار في سفينة المخيم؛ تركُلُها زوابعُ لا تهدأ ناسجةً فوقها خيامًا داكنة. لقد تساقطَت أسنانُك ولم يتبقَ لك غير هذا الرأس الفارغ. لم لا تتساقط الرؤوس الفارغة كما تتساقط الأسنان؟».

لطم وجهَه وصاحَ بصوت مذبوح:

- يا لي من غبي. لقد أتيت أمرا شططا.

وإذ انتبه مقعيًّا على الأرض وصخرةٌ مسنَّنةٌ تنشبُ أظفارها فيه؛ نهض مُعتمدًا على يديه يحدّق بعينين ذاهلتين إلى النهر البشري الصاعد ينوء بحمله الإسفلت؛ كما تنوء الشعابُ بقنوات صغيرة عنه تفرَّعَت عنه إلى المسارب الترابية في التلال.

كفَّ بعضُهم عن السير وتراخت بهم الحيلة تحت أشجار الزعرور والشيح والدُفلى. وضع رأسه بين يديه وإذ رفعه دارت التلالُ المحيطةُ دورة كاملة. أسند ظهره للصخرة مترنحا للسقوط. طوّح ببصره إلى أسفل. صدمه الإسفلت المتعرج كالأفعوان. تدبُّ عليه سيقان أدركها التعب. لم يرَ أثرًا لكنته أو حفيده منها. هجس بإمكانية عودتها المخيم، فرِح «يكفي العائلة مجنونٌ واحد» استدار في صدره الفرح. شدّ قامته الهزيلة. ترك الصرَّةَ حيث

سقطت وخطا أولى خطواته في طريق العودة. خذلتهُ ساقاه وعادت التلال المحيطة به إلى الدوران المسعور. غمغم وهو يتهالك على الأرض:

ـ سأموت... سأموتُ لا محالة في هذا الخلاء.

وضغطَ بجسده الحجارةَ المسنونة محاولًا إيقاف الأرض الدائرة وتلك الأشجار الهاربة باطراد. رأى من بين أهدابه المُغلقة وجهَ امرأة يعرفُها بيد أنه لم يتأكد إن كانت زوجتَه تلك التي تقبل نحوه باسطة ذراعيها نافضة عنها التراب لتأخذه معها إلى التراب، إلى الساحل مـن جديد. صرخت المرأة «عمي» وسمع ثغاءً لطفل يبلغ مرحلة الحبو يتلوى بين ذراعي رجل يعرفه. لم يكن ابنُه الأصغر ولا ابنه الكبير. اعتصر الذاكرة كيما يُخرِج هذا الوجهَ بطيّاتِه المجعدة منها، غمغم وهو يضغط بجسده الحجارة لينفذَ إليه الألم ويشجب منه الدم.

ـ الريحاوي؟!

لم يدر بعدها إن كان حلما ما مر به. الهروب والإسفلت المتعرج والأرض الدائرة كحجر الطاحون، وتلك الرسالة التي وصلت من ابنه في الخليج إلى مخيم جديد، قرأتها كنته ولم تتوقف أو تقرأ من

الذاكرة؛ وابنه يلومُه على الهرب ويصفه بالجنون. لم يدر إن كان هذا حلما. ما يدريه على وجه اليقين أنه رأى الريحاوي يحملُه بين ذراعيه إلـي شجرةٍ وارفة، وقبل أن يغيب عن الوعي هناك أو يموت تماما رأى رجلا يأتي من بعيد يهدر صوته غاضبًا:

ـ هيا انصرفوا من هنا. بعتم أرضكم وجئتم تسرقون أرضنا؟ هيا انصرفوا.

نعم... لم يدرِ أنّه غابَ لحظتها عن الوعي أو مات، ولكنه يدري يقينا أنه رأى ذلك الرجل وسمعَه بوضوح، كما رأى «الريحاوي» رأيَ العين يبكي بُحرقة حتى احمرّت عيناه.

الولادةُ والموت

من بين الواقفين على الجسر بالمئات مضتا نحوه وقالتا «مرحبا». وقفَت إحداهما عن يساره والثانية عن يمينه بزاويتين حادتين. صوتُهما المجروحُ وآثارُ الحزن البادية عليهما سيما الصغيرة منهما؛ أنبتَ لحزنه وأساه أنيابا حادة. لم يكن بأقل منهما بؤسا وضيقًا بالانتظار وحرّ الشمس اللاهبة. حدس بأنهما قد درستَاه عن كثب وهو يتحايل على الشمس والظمأ بجريدةٍ يحمي بها رأسه؛ وبشراب العرق سوس الذي اشتراه من العربة المجاورة.

قلَّبَ في خاطرِه وجه ذلك الرجل المحروق وصوته الغليظ حين اقترب منه هامسا:

- أعرف مَخاضةً قريبة أحملُك عبرها إلى غربي النهر في دقيقة واحدة.

ولمّا تفرس فيه مندهشا فزعا؛ راح يؤكد بحماسة.

- في نصف دقيقة.

ولعله لاحظ استنامة وقبولا في عينيه، لذا أردف بنبرة قنوع:

- لن أطمع فيك. خمسة دنانير تكفي.

دس يده في جيبه بلا إرادة يتحسس الدنانير الباقية من مرتبه في مصنع النسيج. أفزعته فكرة أن يتخلى عن أجرة نصف شهر ثمنا لنصف دقيقة ربما تكون القاضية إذا ما مات غرقا أو مستهدفا برصاص اليهود. أفزعه أكثر أن والده وإخوانه الصغار قد لحقوا بشقيقه الجندي الهارب، وأنهم يدبون الآن شرقا إلى الجسر مع النازحين. تذكر أيام الصبا حين كان يهرع مع أقرانه إلى النهر يستحمون ويعبرون المخاضات إلى الضفة الأخرى؛ فتعجّب أنّه لم يفطن آنذاك أن كل مرة كانت تساوي خمسة دنانير؛ وأن مجموع المرات يساوي ثروة طائلة. سحب يده من جيبه بفظاظة وحين تركه الرجل محروق الوجه نَدِم؛ وحاول أن يلحق به ولكن عاد وأقنع نفسه بأن انتظار يوم أو يومين آخرين سيحرق أعصابه حقا؛ بيد أنه كفيل في النهار براحة الضمير. كفيل بمعرفة ما إذا كان سيف حزيران سيظل يشطر الأسرة شطرين أم لا.

حدق إلى جموع النازحين المتدفقة عبر الجسر المهدم، فندم على أنه حين غادر المخيم قبل حزيران بشهرين للعمل لم يحمل أهله.

ثم غمغم بغيظ «أي عمل هذا؟ لا تكفيني أجرته أكلا ودفع أجرة تلك الغرفة الحقيرة» تذكّر عيني صاحب الحجرة وهما تفترسانه بلؤم؛ وهو يعلن بغلظة أن عنده بنات على أعتاب الزواج وأن تأجير الغرفة لشاب أعزب يطلق عليه وعليهن الألسنة. وحين أقسم له أنه أعزب شريف لا يرفع عينيه للحريم، وأن عملَه في المصنع سيأكلُ النهارَ وقسما كبيرا في الليل، لم يطمئن إلا بعد أن ضاعف الأجرة. عندها فقط اطمأن على البنات وأعطاه المفتاح... حجرة واطئة ضيقة لن تتسع لأهله اذا ما أتوا. هذا إن تنازل الرجل عن فظاظته وقَبِلَ أن يسكنوا معه.

التفت إلى الفتاتين بحسرة، ألفاهما تحدقان إليه بصمت المترقب أن يقول شيئا... أي شيء. ولأنه لم يكن في حالة تسمح له بالمجاملة والكلام الكثير فقد سكنه الضيق؛ من أن فتاتين جميلتين رغم الحزن قد قصدتاه في هذا اليوم بالذات. كان دائما يطمع بأن يلتقي فتاة واحدة، ولو أن تطرح السلام وتمضي. هناك في المخيم كان يحاصره الخجل ولا يرفع عينيه إلى النساء. وحين ارتحل إلى المدينة الكبيرة كان من ضمن أحلامه أن يلتقي فتاة هناك... فتاة واحدة. ولكن ها فتاتين تنتظران منـه كلمة أو التفاتة ود وعطف.

دقق فيها النظر، وجد أنه لا يميزهما غير أن لهفتهما أكثر. قلقهما أكثر وصبرهما أقل. سمع إحداهما تقول للأخرى مطمئنة:

- سيأتون يا سوسن. قلت لك سيأتون.

ألقت عليه الفتاة نظرة متمهلة، ثم سحبت عينيها إلى الشمس المحرقة، فراح يمزق الجريدة بالطول ووزعها على الفتاتين، وحين شكرتاه بامتنان صاح بالبائع أن يأتي بكوبين من العرق سوس. أبقت سوسن الكأس في يدها فيما دلقته الأخرى التي لم يعرف اسمها بعد في جوفها دفعة واحدة، مصصت شفتيها وابتسمت له بمودة. حدس أنهما مثله قد فاجأهما سيف حزيران وهما في الخارج، ولأمر ما نقم على أخيه الأكبر الجندي. كان يظن في البدء أنه استشهد أو ظل هناك يدافع عن الأهل والأرض، وحين ذهب إلى القيادة من باب الاطمئنان على مصيره أخبروه أنه موجود، أنه حي يرزق. تمتم بغيظ «حي يرزق» ولم يجد الحماسة الكافية كي يراه فانسحب إلى الجسر ينتظر.

عاد يحدق إلى الفتاتين، إلى الفتاة الكبرى وهي تلح على سوسن أن تشرب كأسها. هجس في نفسه «إنهما لم تجدا أكثر سذاجة مني لتشربا على حسابه، وربما لهذا قصدتاني من دون الواقفين» .

ولكن حين شربت سوسن كأسها على مضض وحاول أن يحاسبَ كانت الكبرى أسرع منه، فتحت حقيبتها وقالت للبائع:

- عن ثلاثة.

اتنفض وانتفخت أوداجه، شعر لحظتها أن هذه الفتاة قد طعنته في الصميم. ضحكت وهي تدفع يده إلى جيبه.

- هكذا أنتم أيها الرجال.

التفت إليها مستوضحا فأردفت:

- تثور كرامتكم لأتفه الأسباب، أما كبائر الأمور فتولون لها الأدبار. وأشارت إلى الجموع المنتظرة والنازحة وقد تعكَرت عيناها الجميلتان بالغضب. ثم لكزت سوسن بمرفقها قائلة بحقد وتشف:

- أتدرين؟ بودي أن أتعرّى.

حدجتها سوسن بنظرة فزع وغمغمت:

- سعاد! هل جننت؟

ضحكت بهستيرية ثم مدت عنقها نحوه وغرست عينيها فيه متحدية مشيرة إلى الرجال.

- بربك هل يستحقون الحياة؟ هل تستحق أنت الحياة؟

وإذ كان القرف والهوان يفوران من صدره حمما مدمرة؛ فقد لذّ له أن تواجهه بهذه القسوة وتبقُر دمامَله. هتف بصوت مرتفع:

- ورب العزة، الموت أفضل.

وحين وصل إليه هدير سيارة شحن مقبلة من الطرف الآخر، تحول إلى عيون تنقب عن أهله في النازلين منها. تنبه لسعاد وهي تلمس ذراعه قائلة بغيظ:

- أتصدق؟ لا أريد لأهلي أن يأتوا. إن أتوا فليسوا أهلي ولست ابنتهم. ثم سمعها تسأل سوسن في شبه تهديد:

- وأنت؟

نظر إلى سوسن، ألفاها جميلة، في غاية الجمال كأنما اختارت اسمها أو اختير لها بعدما كبرت واستدار صدرها متحديا فستانها الضيق. قالت بنغمة عجز:

- إنني قلقة.

حدجتها سعاد بنظرة غاضبة، ثم راحت تنقر بإبهامها على رأسها مؤنبة:

- قلقك هذا هو ما جعلنا نترك الجامعة ونتحمل مشاق السفر. لو أنت طاوعتني لما جئنا... كأنما كانت الهموم تنقصنا.

وعلا صوتها بما يشبه الزعيق.

- قلت لك فليحترق هذا العالم النتن... لم تسمعي وظللت تبكين أهلك. صدَّقَ عقلك الصغير أن هناك حربا وتدميرا وخرابا وموتا. ستظلين كما أنت صغيرة جاهلة خرقاء... انتظري إذن في هذه المقلاة اللعينة إلى أن يظهر أهلنا أسود الغابة.

ألقت بنصيبها من الجريدة وفتحت صدرها للشمس متحدية، ولما حاولت سوسن أن تحذو حذوها لمجرد الخلاص من التأنيب؛ انتهرتها بمودة أمٍّ حنون.

- ميزة الجرائد أنها تقي من الشمس في يوم كهذا لا بما فيها من أخبار كاذبة.

تجمعت سوسن على نفسها رغم الحر كطفلة نسيت أن تشرب الحليب قبل النوم كما أوصتها أمها. وحين بدأت الشمس تنحدرً مقربة مـن عمامة جبل التجربة الصخري، انبسطت أسارير سعاد قائلـة بحزم:

ـ هذا يوم مـن الانتظار لن يتكرر.

كانت توجه كلامها لسوسن بيد أنه أحس لأمر ما أنه مقصود بهذا التحذير، وندم أكثر أنه لم يصغ لذلك الرجل محروق الوجـه. لو طاوعه لكان الآن جالسا بين أهله في مخيم عين السلطان. كلها بضعة أميال كان يقطعها إلى النهر مشيا مع الصبية وهم يقرأون قليلا ويلعبون كثيرا؛ ويضحكون كلما رمى أحدهم نكتة عن المدير والأساتذة... كانت أيامـا قاسية ولكنها حلوة لا تنسى. دس نفسه في السيارة إلى جانب الفتاتين. إلى جانب سوسن. وجد أن من حق جسده عليه بعد الانتظار المُضني أن يرتاح، أن يشعر بأنه التصق بفتاة.

ما زالت أسيرة الحزن بيد أنهـا فتاة وجميلة أيضا، بل في غاية الجمال، يكاد يطفو من بشرتها البيضاء الشفافة الدم. لقد انتظرت أهلك ثلاثة أيام بطولها وعرضها، بكل دقائقها وساعاتها، فلا بأس

أن تريح ضميرك الذي يوجعك وتستمتع بقربك من فتاة... تمد إليك نسغها الثري. تشم رائحة عرقها بنكهته المسكرة. كنت طول عمرك تتمنى لحظة كهذه . لم تأت في وقتها بالضبط، ولكنها أتت أخيرا ولا بأس من الاستمتاع.

كنت دائما يقتلك الخجل والحياء. لم ترفع عينيك إلى وجه أنثى وتطيل النظر. الفتاة الوحيدة التي عرفتها كانت «زينب» ولكن متى؟ حين كنتما صغيرين لم تتعديا العاشرة. كنت تحبها بجنون وكان أهلك يعرفون، كان أخوك الأكبر يعرف ويضحك من سذاجتك، ولكنه كان يصوب عينيه الجارحتين الماكرتين إليها كلما مرت من أمام الدار ذاهبة إلى المدرسة. كان دائمـــا صياد فرص وربما لهذا فضّل أن ينجو بحياته حين صار جنديا بعد أن أطلّ حزيران بوجهه الكالح. زينب لم تمكّنه منها كما أنها لم تمكّنك. حين لمست صدرها الصغير وأنتما تلعبان «الاستغماية».

ضربتك على يدك ونزعَت عن عينيها العصابة السوداء وولت هاربة. لم تعد تلعب معك أو تحبك. إذن لا بأس من هذه المتعة الصغيرة وأنت ملتصق بهذي الفتاة سوسن. إنها سوسنة بحق ورائحة عَرَقِها النفاذ مسكرة. لا بأس»

أخذت السيارة تتسلق المرتفعات الشرقية برعونة لا تقل عن تلك التي يمارسها الهواء البارد اللاذع. تدفّق إليه خَدر لذيذ راح يمرح في أعصابه. دفع بجسده إلى الأمام وأراح رأسه على المسند، ومد ذراعه على طولها حتى لامست شعر سعاد على الطرف الآخر... شعر خشن أكرت كأنما لم تدس فيه المشط منذ شهر. دبت السخونة في أصابعه وهي تندس في الشعر بحركة حَرِصَ أن تكون غير مقصودة. حركة لم تتنبه لها الفتاة إذ ظلت تحني رأسها على صدر سوسن، تهمس لها بكلام لم يسمعه، ولكنه سمع ضحكة سوسن تتردد في البدء ثم تنطلق من عقالها زقزقة كنار صغير.

انتشى أكثر وانسحبت سخونة محببة إلى منطقة الصدر، إلى حيث القلب الذي بدأ يعلن عن نفسه بدقات غير منتظمة إلى أن فاجأه صوت سعاد غليظا جارحا:

- أغلق النافذة يا أخي.

وإذ نظر إليها على ضوء السيارة الكابي لم تصدم عيناه كما توقع بملامحها القاسية، ولكنه لم يغفر لها أنها أخرجته من دائرة الاسترخاء والأحلام الممتعة؛ من دائرة شعرها الخشن يدغدغ أصابعه فيغذيه بفيض من النشوة لا توصف.

أغلق النافذة وظل على وضعه المتحفز مقعيا على مؤخرته كأنما هو بانتظار أن تأمره بفتح النافذة من جديد، فقد غدا الحر لا يطاق كأنما لم يغادر شمس الغور ولم تغادره لتندس في عمامة جبل التجربة. تمنى لو تموت سعاد بشعرها الأكرت الخشن فيخلو له وجه سوسن البديع.

اختلس إليها النظر كيما يرى إن كانت أمنيته الطارئة هذه ستحقق عما قريب، ولما ألفاها ما زالت تنحني على سوسن تهمس لها، تضاحكها، أيقن أن هذه الفتاة لا تكتفي بالسطو على أحلامه الجميلة؛ بل وتستأثر عامدة بزميلتها التي ظلت إلى وقت قريب ترى الضحك والانطلاق؛ وحتى الابتسام خيانة لا تغتفر، على العكس من سعاد التي تخبئ الحزن بمهارة في أغوار نفسها، تتحايل عليه بالنكات والسخريات، لا لتنتقص منه كما اعتقد في البدء؛ وإنما لتضاعف من رغبتها في موت سريع حاسم، كأن يكون في ضربة شمس مثلا كما تاقت لذلك حين أزاحت عن رأسها الجريدة، وقدمته للقرص الملتهب لقمة سائغة عفّ عن مضغها وابتلاعها.

حدس أن أحلامه بالوصل مع سعاد ستكون أسهل تحقيقا، وأنه سيصل إلى أغوارها السحيقة بضربة مجذاف واحدة، أما سوسن

فرغم هدوئها وتسامحها، رغم إشراقة وجهها الطارئة فإن الوصول إليها لن يكون بالأمر السهل... دون ذلك تيارات ضارية وعواصف لا تهدأ. هو موقن من ذلك لذا يرضى بمجرد لمسة منها لو كفت تلك الفتاة سعاد عن الاستئثار بها من دونه.

ارتفعت ضحكة غير حذرة من الفتاتين ، لوت عنق الراكبين في المقعد الأمامي، أما السائق ذو الرأس الكبير فلا بد أنه لعن الطريق المتعرج؛ إذ حرمه من إطالة نظرته الخاطفة. وخزته الغيرة حيث سبق لتلك الضربات الرعناء أن اخترقت صدره. أحس أنه بشكل أو بآخر مسؤول عن الفتاتين، ولكي يعطي لنفسه مثل هذا الحق لام نفسه على خواطره السابقة، وتزحزح إلى نهاية المقعد تاركا فسحة غير ضيقة بينه وبين أقربهما إليه.

ظل منقبضا موغر الصدر إلى أن وصلت السيارة إلى مشارف المدينة، صار تنفسه منتظما. وإذ بلغت السيارة وسط المدينة تنفس بارتياح رغم الأجساد المنهكة والمبعثرة على الأرصفة بانتظار الفرج. تنفس بارتياح. هيأ نفسه للنزول بيد أن الفتاتين ظلتا جامدتين مكانهما وقد فارقهما المرح وافترسهما الإحساس بالغربة والضياع. اخترقه التأثر رصاصة قاتلة، واذ تلفت السائق إليهما بعينين جائعتين يسترد فرصة فاتته خلال الطريق؛ همَّ أن يصفعه

ويسمل عينيه. منذ ثلاثة أيام وهو يتوق إلى مشاجرة حقيقية يسيل فيها الدم. سأل السائقُ بصفاقة:

ـ هل من خدمة أخرى؟ أنا تحت الأمر ورهن الإشارة. أنقلكما حيث شئتما بلا أجرة. قسما بلا أجرة.

توترت عضلاته، بالكاد منع نفسه من صفعه «هذا السائق لا يكتفي بأن يهمله ويسقطه من حسابه. لا يكتفي بنسيان أن معهما رجلا مفتول الشارب والزندين، بل يحاول استغلال ضياعهما وغربتهما».

فرك يديه بغيظ ولام نفسه أكثر على أنه انعطف إلى مثل هذي الظنون من قبل، وإذ سمع سعاد تقول بلا مبالاة:

ـ اذهب بنا حيث شئت... إلى أي مكان تريد، لا يهم.

أحس أنه يهوي من شاهق فصرخ وهو يفتح الباب ثم يسحبهما إلى الخارج بالتوالي.

ـ ما هذا الهراء؟

وصفق الباب بعنف متحينا من السائق أي نظرة أو كلمة عابرة لينقض عليه ويشبعه لكمًا؛ حتى يفرغ ضيقا يحاصره منذ بضعة أيام. وإذ لفه دخان السيارة الذاهبة نكس رأسه وقال بصوت متهدج:

- إن كنتما لا تعرفان أين تذهبان فهناك حجرة أسكنها. هي قميئة حقا بيد أنها تتسع لثلاثتنا.

لم يندم على تسرعه، فإن اعترض صاحب الحجرة سيجد عندها الفرصة سانحة لتحقيق حلمه بالشجار. ما أربكه حقا تلفت الفتاتين إليه ثم إحداهما إلى الأخرى، مما دفعه إلى القول ببراءة متناهية:

- الليلة فقط ... وفي الصباح نذهب إلى الجسر لعل وعسى.

كشفت لهجته البريئة لهفة لم يقصدها بيد أن سعاد تحديدا أدركتها فقالت على الفور ضاحكة:

- ولم لا؟ شيء رائع.

حدجتها سوسن لائمة فاستدركت على مضض.

- ولو أن من رأيي أن الفندق أفضل.

- ولـكـن...!

مرة أخرى يكشف عن لهفته دون قصد، ومرة أخرى تفهمه سعاد. ضحكت قائلة:

- ابق معنا... نريدك معنا.

قال بحياد دون أن يفارقه الإحساس بالوضاعة:

- أعرف فندقا مريحا ورخيصا.

أسرعت سعاد قابضة على ذراع صديقتها وقالت بمرح:

- هيا بنا إلى الفندق المريح الرخيص.

لم تدع له مجالا للاعتذار أو التراجع. دست إحدى ذراعيها تحت إبطه وقبضت بالأخرى على ذراع صديقتها. سار ولمّا يفارقه الإحساس بالوضاعة. نظر إلى الأجساد المبعثرة على الأرصفة بعينين اعتراهما الغبش. تذكر شقيقه الجندي. تذكر وجه ذلك الرجل المحروق بصوته الغليظ الواثق رغم الطمع المزروع في عينيه. وإذ اعتصر قلبَه الندمُ هتف في سره «ولم الدليل؟»

وعـادت به الذاكرة إلى أيـام الصبا والمدرسة حين كان يذهب مع أترابه إلى النهر.

لقد عرف آنذاك أكثر من مخاضة تفرش سجادتها على صفحة النهر الجليل. خاض فيها مع الصبية وقطعها إلى الضفة الأخرى. لم يمنعه من الذهـاب بعدها إلى النهر إلا حين قبض أبوه على أذنه. لوّاها وهدده بالذبح إن هو ذهب إلى النهر مرة أخرى خشية الغرق؛ كما حدث لأحد الصبية بعدما أغراه هدوء النهر فتوغل فيه طولا، ولم يعثروا على جثته إلا في البحر الميت.

«كانت المخاضات تعنى لك ولأبيك الموت أما الآن فإنهـا تعني الولادة... تعني الحيـاة».

نتر ذراعه من يد سعاد، وتصدى للفتاتين صارخا:

- لن ننتظر أن يأتوا، نحن من سيعبر إليهم النهر.

تسمرت الفتاتان مندهشتين وهتفت سعاد بفرح:

- كيف؟

وزّع ذراعيه في كل اتجاه قبل أن يسعفه لسانه بالقول:

ـ أعرف مخاضة. نقطعها مثلما نقطع هذا الشارع من رصيف إلى رصيف.

وقبض على يد كل منهما وعبر بهما إلى الرصيف الآخر، ثم صعّر خده بحماسة.

ـ هه! ما رأيكما. ما رأيك يا سعاد؟

مطت شفتيها مفكرة ثم هتفت فجأة وهي تلتصق به وتضغط ذراعه:

ـ فكرة مدهشة... عمل مدهش.

والتفتَ إلى سوسن لا لتأخذ رأيها؛ وإنما لتؤنبها على خوفها وترددها.

ـ نحن نريد أهلنا هناك لا هنا. انظري حولك لتعرفي أن الموت الحقيقي على هذه الأرصفة لا في عبور النهر.

وتدفق من فمها سيل من الشتائم والسباب عليها وعلى كل شيء في هذا العالم.

وفي الفندق اعترضت عليه أن طلبَ غرفتين. قالت بصرامة وتحد:

- بل غرفة واحدة.

ثم التفتت إليه مؤنبة.

مصيبتنا أننا نقول غير ما نعتقد، وأننا نفعل غير ما نريد. هذه مصيبتنا، وسألت سوسن بلهجة ذات مغزى:

- أليس كذلك أيتها الفتاة الطيبة الحزينة على أهلها؟

ولما نامت في عيني الفتاة نظرة استسلام وقهر، أردفت بحزم:

- غدا سنقطع النهر.

ولما انتهوا إلى الغرفة، راحت تدور حول نفسها، تخلع ثيابها قطعة قطعة مرددة:

- أريد أن أفسق... أن أفجر... أن أهتك الحرمات.

تكالب عليه القهر مفسحا طريقا ضيقة لخيوط الخجل. أدار ظهره نحو الباب فصرخت به:

- تعال وانظر. واجه الحقائق المذهلة ولو لمرة واحدة، ثم مت دونها كيما يكون للموت معنى ذي قيمة.

نزعت قميصها وطوّحت به، ارتطم بالسقف وهبط على رأسه مباشرة. تناوله واستدار محاولا إقناعها بأن هذا لا يليق. خطفته منه وطوّحت به ثانية وراحت تضحك بهستيرية، ثم اندفعت إلى سوسن صارخة:

- أنت أيضا يجب أن تتعري، أن تفجري، العري هو الحقيقة الوحيدة في هذا العالم... نولد عراة، نعيش عراة، نموت عراة، ويأكلنا الدود ونحن عراة.

ولمّا مانعت سوسن بخلع ثيابها هوت على صدغها بلطمة موجعة، ولكنها لدهشته لم تصرخ. راحت تشاركها الضحك الهستيري، ثم تعانقتا وسقطتا على الأرض تنتحبان. ضغط رأسه بالجدار ثم تركهما على هذا الوضع وخرج يضرب في الشوارع بانتظار الفجر.

لارا المنافي

عجبا! إنهم يغنون وأنا حزين. ولمَ العجب؟ الخمر نهر وبحر وأغنيات، وهذا الفندق جزيرة صاخبة في بحر مدينة رعناء.

البحر تركته ورائي. بحر يافا تركته ورائي، وحملت وجه زوجتي، عينيّ زوجتي... لطمت وجهي. «يا لي من غبي! كيف طاوعتهم وتركت البحر» قالت وردَات: « اشتر لي بحرا يا أبي ألاعبه». كان البحر في عيني أمها. قالت وردات: «أحب البحر وعيني أمي... أعطني عينيك يا أمي». قالت أمها وقد توقف بيننا قطار الغزل: «اخرسي». وقدّمت لي عينيها كي أبحر فيهما من جديد.

إنهم يغنون «ميلاد سعيد... ميلاد سعيد للارا». قالت وردات: «كم عمري الآن يا أبي؟» قالت أمها: «لم يبق في الخيمة ولو حفنة طحين واحدة. لم يبق قرش أحمر أو أصفر». إنهم يغنون للارا. يتمنون لها عاما سعيدا وعمرا مديدا. يشربون الأنخاب؛ حمراء وصفراء وخضراء.

يتلمظ الساقي الأسود. دائما الساقي أسود. يلمع لعابُه على ذقنه الملساء. تسقيه لارا ثمالة الكأس، حثالة الكأس. تغمز عجوزا أشيبَ يتوددُ لفخذها العارية. يسدد إلى الساقي نظرة حارقة. يرمي إليه بنصف دينار. تضربه لارا على يده المعروقة. تدس يدها في جيبه، تسحب خمسة دنانير، تدسها في يد الفتى الأسود. ينحني عميقا. تتسمر عيناها على ظهره العريض، على الحزام الأبيض العريض.

يرفع ظهره ببطء تسبق عينيه إليها أسنان ناصعة البياض. قالت وردات: «أبي! أعطني قرشا. أريد قرشا» قالت أمها: «اخرسي. متى تفهين؟ عمرك الآن خمس سنين». فتحت فمها وردات... فتحت فمها بفرح. تلقت نظرة تحذير من أمها فأغلقته. تشنجت ملامحها البريئة وبكت... بكت وردات. حين تبكي وردات تهاجر الطيور الملونة، وينتحر الزنبق في الحدائق.

انتهرتها أمها. ظل نشيجُها طاغيا على صوت مذياع قريب. تسبح في القاعة موسيقا ناعمة. يهفهفُ زغب الفرح على الوجوه، على وجه لارا، على وجه العجوز. ينهضُ راقصا. يهفو إليها شحرورًا ينعم بالثراء. الغربان شحارير كبيرة لا تغني. تضع لارا ذراعيها على كتفي الساقي الأسود. تترنح وترتمي على صدره. تدور عيناه

في وجه العجوز بذعر؛ فيما ذراعاه جناحا بِطريقٍ على صخرة عالية.

يلطمه العجوز ويسترد الدنانير. تقسم لارا أن لن ترقص أو تنام معه الليلة. يطوي أنفه المشرع. يربت على كتف الساقي معتذرا، يعيد إليه الدنانير مضاعفة. يهز الساقي رأسه بإباء ويمضي ليلملمَ شظايا كأس تهشمت. تدير لارا ظهرها للعجوز. يمضي إلى الساقي وينحني ليجمع الشظايا معه. يرفض الدنانير بفتور. يدسها في يده ويمضي باتجاه لارا، يضحك... دستُ في يد وردات قرشا. انطلَقت إلى الخارج تضحك وتبرجمُ عصفورةً لقيت أليفها.

عبست أمها «ستفسدُها بهذا الدلال» نترت جسَدها ولحقت بوردات تنقذ منها القرش قبل أن يهلك. عادت وردات تفرك عينيها... تعيد لارا وتذكّره بأيمانها الغلاظ. يجثو على ركبتيه. تضحك «إلى الغد... سأنام الآن».

ينثر الدنانيرَ والذهب على قدميها. تنام في عينيها نظرة استسلام. تنبّه للساقي. تنفضُ قدميها بعصبية «سأنام الآن». تتثاءب وردات. قالت وهي تغلق عينيها على الدمع استعدادًا للنوم: «سوف أبيع الزجاجات الفارغة بقرش». انقضّت أمها على سلطان النوم

تسحبها من بين ذراعيه «تبيعين زجاجات الدواء! ملعون أبوك». حاولت وردات أن تبكي. خانتها دموع أفرغتها قبيل العصر. استردّها السلطـان وظلت أصابعها تتحرك ثم استكانت على فراغ.

يطلب العجوز زجاجة أخرى. يسكبها على لارا. تبرز حلمتا نهديها جمرتين. تضحك بعد عبوس. تقرص الساقي من خده اللامع وتدوس على قدم العجوز. تخلع قميصَها. تضغط كتفي الساقي بيدين مرتعشتين. يجثو عنـد قدميها. تعصرُ القميص في فمه. «اشرب» يضحك عن أسنانـه اللامعة... نظرتُ إلى وردات. كانت تبتسم. كانت تضحك في النوم. حين تضحك وردات في النهار يغني الكنار على الشجر. قلت لأمها: «إنها تحلم بالقرش. وردات تحلم بالقرش أيتها القاسية». قالـت عابسة: « بل تحلم بالبحر. تحلم بعيني. إنها مجنونة» قلت: «ولكن عمرها خمس سنين!». هزت كتفيها ومضت غير مبالية.

تهز لارا خصرها. ينتفض نهداها عصفورين هزّهما البَطر. يتمطى السـاقي. يضحك العجوز. تهمز الساقي إلى المصعد. يعبس العجوز. يسقط طاقم أسنانه. يركله رامقا المصعد بغيظ. نظرتُ إلى وردات. كانت تصعد جبالا عالية وتلهث. حين تلهث وردات تموت العصافير من العطش. عادت أمها عارية. قالت ووجهها

حقل أخضر غزاه الجراد: «لم ننجب غيرها». وغابت بجانبي تحت الغطاء الخلق. تغيب لارا والساقي في المصعد. يلطم العجوز وجهه. يبكي ويدير وجهه للحائط الأملس.

أدارت لنا وردات ظهرها. استلقت أمها على ظهرها. قالت: «هيا». حاولتُ وحاولتْ هي غير أن وردات ظلت بيننا حاضرة.

غابات الصنوبر

لحظَتَها كنت حزينا لحد الموت. الحزن فأر يقرض أعصابي منذ وقت غير قصير. بالضبط منذ أن أخذ الصنوبرُ يطرح في الشتاء أضواء عابثة؛ تتزحلقُ عن الهدايا والألعاب وفساتين السهرة في واجهات الزجاج.

إنه العيد. إنه رأس السنة والفرح يسيل في الشوارع والحانات. يهدر بالمجان في الظاهر. ولكن علي أن أدفع رصيدي من الحزن كي أستطيع ممارسة الفرح. الفرح؟ إنه مجرد كلمة قديمة تكدَّسَ عليها الغبار في مناسبات عدة؛ أولها الفراق القسري للبيت المُزنّر بالصنوبر والسكنى في خيمة جرداء، وآخرها فراق الحبيبة الأبدي.

لقد ماتت زينب. ماتت وعام مهاجر يسقط أوراقه على صدر عـام جديد. ماتت وأشجار الصنوبر تطرح ثمارها المتوهجة في الشتاء. لفظت أنفاسها على صدري والصنوبر حول البيت في إغفاءة ما قبل الصحو. لم أره ولن تراه زينب. بيني وبينه الرصاص. بينها وبينه الموت. لم يبق منها غير فكرة حبيبة وبقعة دم قانية تركتها على قميصي حين اشتد بها السعال في الخيمة. واريتها التراب في ليلة باردة كهذه.

كان البرد ساعتها يجرد سيفه ويوزع ومضه على مفاصلي وعظامي، تركتُ المخيم غرفةً عارية. خلعتُ القميص وعلقتُه فوق السرير مباشرة. خطوطه الحمراء تحكي قصة حب دُرس. تحكي عن قسوة الموت، تلعن الموت وكل ما يغتال العصافير عن شجر الحب. لقد ماتت زينب فلم كل هذا الفرح السائل في الشوارع والحانات؟ لقد ضاع البيت وماتت زينب ولم يبق سوى قميص ملطخ بالدم وحجرة عارية.

عقد الفقر مع الموت حلفا وهاجما زينب. قالت ورأسها على صدري رقاص ساعة هدّه التعب:

ـ إنـه يقترب.

لم يكن معنا في الخيمة خلا عجوز أشعل الدهرُ رأسَها. قالت العجوز:

- خذها بعيدا عن هذا المخيم.

وأردفت وهي تكفكف الدمع:

- خذها إلى قمم الجبال.

ترنحت الخيمة في إنذار مبكر لنسمة عابرة. سقط رأس العجوز على صدرها.

انهمرت دموعها سيلا يجرف رايات الأمل. سبقتني إلى القول.

- القمم ترفض الخيام. تمزق الخيام.

وجدني الموت أرضا خصبة يحرثها ويزرعها بالحزن. كل هذا في رأس السنة .

شرّعتُ أصابعي أطبق بها على عنق الموت. تشبثت زينب بي.

- لا تخف. سأحمل وجهك في صدري.

أشاحت بوجهها وولولت.

- لكم أشتهي أن اقبّلك. ابتعد عني.

حمَلَتها موجةٌ من السعال بعيدا وألقتها عن صدري. أعدتها إلي. قبلتها إلى أن هدأت تماما وهي تبتسم. قطَفَت وجهي. خبّأتهُ في صدرها ومضت. ذهبت قبل أن يكتمل ثوب العرس وطرحة الأحلام بالعودة إلى البيت المُزنّر بالصنوبر.

لمَ كل هذا الفرح؟ متى كان الصنوبر يطرح أنوارا حمراء وخضراء وزرقاء؟

لقد ماتت زينب واليتم الأبدي يهرول في ردنِ عامٍ جديد، فلم الفـرح؟

لم تكن السيارة بأقل مني سعارا وإحساسا بالحزن والقهر. تعض الإسفلت وتغرس في لحمه الطري أظافرها وتصرخ به أن يُسكِتَ الفرحَ الزائف. زفيرها ولهاثها لا ينبعان من تسلقها الطريق الصاعد إلى حيث شمس اختفت في ليلة مماثلة لهذه. إنها تركض حتى تنتهي إلى حانة ضيقة لتشرب معي كأسا حتى الثمالة؛ وبعدها لينفجر الحزن ولينفجر الواقفون على الأرصفة بانتظار أن أحملهم إلى قلب الفرح... حيث الصنوبر يطرح ثماره الملونة في الشتاء. فلينتظروا إلى الأبد. لن أحمل أيا منهم... لينتظروا.

انسكبت أضواءُ السيارة على كتلة سوداء. حسِبتَها شجرةً منفردة تلوك وحدتها على قارعة الطريق؛ لولا أن ارتفعت ذراعًا وتحرّكت استجابةً للخوفِ بينما استجابت لقدمي الفراملُ بشكل لا إرادي. مزّق زعيقُها أردية الليل قبل أن تنحرف لتعانق عمود كهرباء؛ يدمع مصباحه ضوءا خافتا كأنما لم يبلغه بعد أن الليلة عيد. قبل أن أنفجر ساخطا جاءني صوت أنثوي مشروخ:

ـ هل أنت بخير؟

هززت رأسي بلا معنى، ولما استدرت ارتطمت عيناي بوجه شاحب تتلصص منه عينان حائرتان. رفعت حاجبيها وهمست بكلام لم أسمعه. فَتحَت الباب وألقت بجسدها إلى جانبي. قالت بصوت حزّني من الوريد إلى الوريد.

ـ آسفة.

قلتُ بلهجة قاطعة مانعة:

ـ دعك من الأسف... لا يهم ما حدث... إلى أين؟

زفرت قائلة بصوتها المشروخ:

- إلى أي مكان لا أرى فيه أنسيّا أو أضواء مزيفة. إلى الليل الحقيقي.

واستدرَكَت بعدما تلقّت مني نظرة ارتياب.

- إلى أي حانـة مظلمة.

قالت زينب: «أكره الموت لأني أكره الظلمة وقالـت: أكره الخمر وأشتهي العنب في الساعات الأولى من الصباح».

التفتُ إليها ثم إلى الليل المُغتَصب من مصابيح الشارع.

- كانت زينب تكره الظلمة والحانات.

همسَت بصوتها المذبوح.

- زينب! من زينب؟

طوّقتُ المقودَ بذراعي. مرغتُ وجهي بحديده البارد وأغرقته بدموع سخينة استعصت عليّ منذ زمن طويل.

- زينب. ألا تعرفين زينب؟ إنها حبيبتي.

حدثتها عن الفقر والموت. حدثتها عن شجر الحب وعن البيت الذي غادرناه قسرا. حدثتها عن القميص الملطخ بالدم فوق سريري.

تنهدت بحرقة. قالت وهي تضع يدها على ذراعي.

- قتلوا سرحان... قتلوه.

همَست بصوت مذبوح.

- سرحان! مَن سرحان؟

أسندت رأسها إلى المقعد وصافحت عيناها السقف الواطىء.

- سرحان. ألا تعرف سرحان؟ إنه حبيبي.

حدَّثتني عن السنونو المهاجر في عينيه. حدَّثتني عن المخاضات والنهر. عن سر الرصاصة المعلقة بين نهديها.

- أصابته في قلبه.

أعادتها إلى موضعها بحرص.

- قتلتنا معا.

تحركت بنا السيارة دابة مثخنة بالجراح يتناثر من حوافها الدم.

- كنتُ مثلكِ أبحث عن حانة أدفن فيها أرتالَ الحزن.

حركت ذراعها بضجر.

- لم تعد بي حاجة إلى الخمر. أشتهي العنب في الساعات الأولى من الصباح.

- وأنا أحب المخاضات والنهر.

نشطت بنا السيارة مهرا أرعن. اخترقت غابات الصنوبر وعقارب الساعة تزحف على صدر الليل... تعد أجراسها لاستقبال عام جديد.

الرمادُ الساخن

أوشكَ أن يصرخ أو ينادي بالتِياع «عائشة». حذّره قرطٌ يترنح من أذن بيضاء صغيرة؛ وشعر أسود منكوش بعناية كغيمة مثقلة بالمطر. «اسكت يا غبي.. هذه ليست عائشة». وأكمل الثوب الوردي المحلى بالكرانيش دائرة الصمت ملقيا صوته في نعش الذكريات.

تصالبت عيناه على ذراعها المدسوسة تحت إبط سمينة ينوء بحملها رجل ضخم مترهل اللَّغدِ والكرش، يُحلّي صدره العريض بربطة ملونة تكفر بالبذلة الزرقاء؛ في لون النيل المدعوكِ بالوحل، كما تكاد الخواتم في كلتا يديه تتبرأ من أصابعه وتلعن حظها النحس؛ فتستجيب بومض نزق كلما رفع يديه ليمسح عن وجهه العرق لاعنا هذه الإشارة الحمراء؛ التي صلبته على الرصيف تحت شمس لاهبة.

سحب عينيه إلى صفحةِ وجهها المقابلة «إنها عائشة» غاص في خاصرته مرفقٌ لئيم، ولما رفع وجهه تصدّت له عينان يزفر فيهما

الغيظ؛ فأدرك أنه يفكر بصوت مسموع. خُيّل إليه أنها تبتسم فتدفق إلى جوفه زيت حار.

حال انبجس الضوء الأخضر هاجم الرجل الشارع بشراسة المهاجمين؛ وتحت إبطه ذراع أسيرة طالما لملمت الحطب للمواقد، طالما اغترفت الماء من العين لتملأ الجرة.

اصطدَمت يدُه بصدر الرّجلِ المكتنز. قال له: «عفوا» فتصدت له عينان يزفر فيهما الغيظ. قالها بصوت مرتفع محدِّقًا إليها ولم ينتبه إن كان الرجلُ قد قبل اعتذاره. «إن كانت هذه عائشة فسيلقيها الصوتُ في بحر الذكريات... الحارَة، الخيم، والتلال العامرة بالحطب والشوك وروث الماعز، سيذكرها بالوعود التي قطَعتها لك ومن ثم قطَعت حبالَها ومضت فرسا حمقاء، سيذكرها بالنبع الذي انتشلها منـه ذات مرة».

ضاعت منه وسط الزحام، ولولا الفجوةُ التي أحدثها الرجل الضخم لما اهتدى إليها.

سار خلفها مباشرة. رأسها بمستوى رأسه وقد عهدها أقصر منه ببضعة قراريط. «إذن فهذه ليست عائشة». انحدرت عيناه إلى حذائها العالي فضج صوت في داخله. «بل هي عائشة» غزاه

عطـر نفاذ فهتف: «وأين رائحة الدي دي تـي وزيت السمك والجبن الكشكوان العفـن؟ أين رائحة المرجريـن والنفتالين وطين المخيم؟ هذه ليسـت عائشة».

رأى الرجل يتوقف بها أمام مطعم فاخر، ثـم وهو يدفعها إلى الداخل بفظاظة من يزعجه أن تتقدم عليه امرأة. تسمّر أمام واجهة الزجاج اللامع يرى وجهه ويراها سرابا ابتلعتهُ صحـراء يَنوسُ في حلقها العطش. هم بالدخول، حذرته القروش القليلة من مغبة ارتطام رأسه بهذه الجدران العالية. ولكنه يريد أن يراها. إن كانت هي حقا فهو لم يرها منذ ثلاث سنين؛ قبل أن تغمزه البندقية ويصيرَ مقاتلا. قبل أن تتزوج عائشة.

لم يرها ذلك اليوم حلزونةً ملوّنةً تغرقُ بالذهب وتحملها سيارة سوداء لامعة أطول بكثير من ليل المخيم، من ليـل الخنادق؛ فقد تزوجت ورحَلت إلى بلد تزخر بحاره بالمحار واللؤلؤ وتحبل أرضه بالنفط . استقبلته أمه يومهـا بوجه مكفهر، أطفـأت مصابيح الفرح. يعرف أن الأرض التي يحبُّها ويحاول استردادها قد سقطت، فلم يبق إلا عائشة. سألها بقلق:

ـ ماذا جرى لعائشة؟ هل سقطَت في النبع؟

هزَّت رأسَها مومئة يجرحه صوتها:

- سقطت في منابع النفط.

حدثته عن يوم الزفاف والخطبة السريعة الحاسمة. بدأت شامتة ثم انتهت يقتلها الحزن.

- لم يجبرها أحد عليه. قال لها أبوها: أنت حرة، انتظري ابن حفيظة إن شئت.

تسـاءل بحرقـة:

- ولماذا تزوجت من غيري إذن؟

حدقت إليه مليا وقد طوّق عينيها الدمع.

- لأنها قالت: ابن حفيظة؟! طز.

سقط رأسه على الصدر. حاول أن يتذكر ماذا كان يفعل ليلة الزفاف. أعيته الحيلة، ولما وجد أن الليالي يتكرر وجهها جزم أنه كان في الخندق يحتضن الرشاش؛ وإحدى عينيه على الأرض والثانية على السماء الصافية يبحث بين نجومها عن مكان يحمل إليه عائشة.

يرفعها إلى هناك كما رفعها ذات مرة حين سقطت في النبع فطارت من حولها الشائعات إلى أن أخرسها أبوها.

ـ أنا أعرف ابنتي، وأعرف «مخلوفًا» فمن كان لديه كلام زائد فليرمه في المزبلة.

ولكي يخرس الألسنه أو لكي يقطع الشك باليقين طلب إليه أن يقسم أمام الناس على أنه ليس بينه وبين عائشة ما يغضب الله والشرف والدين. أقسم ثلاثا فرفع أبوها عقيرته متحديا.

ـ اشهدوا يا أهل المخيم على أن عائشة لمخلوف.

وبعد أن انفضوا أخذه جانبا يحاصره بعينين يمور فيهما الشك.

ـ ما حكاية النبع بالضبط؟

لم تعن له ملامحه الصارمة ولا هذا السؤال المفاجئ إلا أن الكبرياء وربما المكابرة منعته من الانسياق وراء تلك الشائعات؛ وذبح ابنته على مدخل المخيم. الكبرياء ذاتها منعته من الرد. قال بلهجة حاسمة:

ـ لقد أقسمت على براءتي وبراءة عائشة.

تركه فاعر الفم ومضى إلى البيت حيث وجد أمه هناك قد جمعت من حولها النسوة تنحر الشماتة بالزغاريد. لم يدر لحظتها إن كان عليه أن يفرح أم يحزن. لقد شاهد في عيني الأب ضياع الأمل وما سؤاله المفاجئ إلا دوامة عاتية لم يفلت منها بعد. شعر لحظتها أن عائشة القريبة من القلب والروح باتت تفصله عنها أميال طويلة، وأن زواجه منها لن يكون سهلا كما كان يظن.

ألقته يومها هذي الذكريات على جمر مستعر وحين نظر إلى وجه أمه أشعل حزنها البادي في كيانه النار... يعرف أمه صادقة، لا تكذب، فقد قالت عائشة «طز». فكانت النغمة الأخيرة في معزوفة حب على كل لسان . لقد قالتها واختارت الزواج من ذلك الرجل، إنها مهزلة سواء أكان ذلك بمحض رغبتها أم بإيحاء من أبيها الذي كان في هذه المسألة يعيش بوجهين. وجه مكابر أمام الناس، ووجه يلتقيه به صارما ينضح باللؤم والشكوك.

لم يندم على أنه أحبها لدرجة العبادة، ندم فقط على ذاك القسم الغليظ وندم أكثر حين ذهب إلى أبيها يستوضحه الأمر؛ فأعاد عليه حكاية النبع وطالبه أن ينسى ويدعو لها بالتوفيق. سقط في قلبه غم لا يوصف فتركه يسحب أنفاسا عميقة من نارجيلة لم يره

من قبل يدخنها. حدس أنها واحدة من بحر الهدايا التي أغرقه بها ذاك الرجل الذي اشترى عائشة.

أرسل عينيه خلال الزجاج ولما ظلت سرابا في صحراء يجفف حلقها الظمأ استدار إلى الباب ودخل المطعم. اختار طاولة قريبة منها رآها تداعب عقدا من اللؤلؤ مصوبة عينيها إلى الرجل المكتنز؛ وهو يميل عليها هامسا برأسه الضخم فيما ربطة العنق تنام على الطاولة كالحرباء.

وكأنما أحست بوقع عينيه عليها، لفت جيدها واحتوته بنظرة طويلة فكاد يصرخ «إنهما عيناها وهذه عائشة». أفرغت ضحكة لنكتة أطلقها الرجل فأخطأ الطريق إلى ذلك الرنين الفضي أيام كان يقصدها إلى النبع أو يسمعها تضحك من بيتها المجاور. قال: «إنها ليست عائشة». وحين قام الرجل إلى الهاتف رآها تستعرض الذهب على جيدها وفي معصميها وتختلس النظر إليه، عندها وعندها فقط أقسم أنها ليست عائشة.

نهض من فوره واندس في زحمة الناس قبل أن يترك هذي المدينة الفاجرة إلى ليل الخنادق الطويل، إلى حيث بحر كثير النجوم، شديد الروعة.

النوارس

اليوم أيضا يرى الترابَ الغريب يواري جسدا باذخا طالما جابـه الرصاص صاعدا التلال والجبال العالية؛ هابطا السفوح والوديـــان الخضراء في انتظار جولة أخرى مع الإنجليز واليهود.

هذه المرة الثالثة خلال شهر واحد يقرأ النعي في الصحف أو يسمع من يقول له بصوت مذبوح «فلان أعطاك عمره». خلال شهر واحد تساقط الرفاق بعدما كابدوا مثله الشيخوخة والعجز وقلة الحيلة في الغربة. اعتاد من قبل أن يطوي رفاقَ الدرب واحدا إثر واحد ولكن على فترات تسمح لجمر الحزن أن يختبىء تحت الرماد؛ فيضرب في شعاب الذكريات مُفكّرا في الحياة والموت وما بينهما من أفراح وأتراح، وإذ يتذكر ابنه الوحيد ينهال الرماد على الجمر.

ينطفىء تماما حين يتذكر أبناء الرفاق وهم مثل ابنه عرفوا الطريق الصحيح إلى الوطن؛ الطريق البادىء من عين الرشاش وفوهة المدفع. ينطفىء الجمر ويترحم على تلك النوراس

المهاجرة التي قضت بعدما أفسحت الدرب وعبَّدتها لأقدام ثابتة لا تعرف التراجع، عبدتها لنوارس أخرى تكفر بالهجرة المباغتة وتغرس مناقيرها وأجنحتها على الشاطئ الأزرق حيث ملاعب الصبا وفورة الشباب.

لقد رأى من قبل تساقط الرفاق، حَزِن ولكن ليس إلى درجة أن يغدو معها التفكير تخبطا، والانتظار حرقة، والذكريات مجرد أوراق يابسة عصفت بها ريح هوجاء. فقد وارى التراب آخر الرفاق «عباس» ولم يبق غيرُه خيالَ مآتةٍ في هذا البستان الخرب، هذا المخيم المهدد أبدا بالجراد.

يعرف تماما أن الموت حقيقة مجردة، لا يرهبه، وأنه ليس السبب في هذه الحالة من التشتت والضياع، أو سقوط رأسه على الصدر المتهالك ثمرةً رخوةً نخرَها الدود، لا يقوى على رفعه خشية أن ينفض ما فيه من دم أو صديد أو عذاب مرير.

يعرف تماما أنها ليست رهبة الموت وإنما هي جملة أشياء عزيزة لا تنسى. «لو كنتَ ترهبه لما انتظمت شابا في صفوف الثورة تقارع الإنجليز واليهود على حد سواء، ولما أرضعتَ ابنك الوحيد

حب الوطن الضائع شَهدَا مُصفى؛ ولما عانقته بحرارة حين دخل عليك بالبذلة المرقطة والكوفية والرشاش.

لو كنت تخشى الموت حقا لما صببت في شراييه نهر تلك الأرض التي لم يتَسنَ له أن يراها طفلا؛ فأثمر الجهدُ والصبر عن بذلة مرقطـة وكوفيـة تحيط بالكتفين ورشاش، أثمر إصرارا على أن يظل نورسًا يزرع منقاره ويفرد جناحيه على شاطىء تلك الأرض الطيبة؛ حتى إذا ما أدركه الموتُ أو أدركتـه الشهادة التحف بنسغها الثرى».

وحين يفكر بين موت كهذا وبين موته هو المنتظر كلما تساقط الرفاق؛ ينهض برزخ هائل بين المَيّتين، عندها يتشتت ويذوب في طين المخيم اللزج، ويكفر بالشيخوخة، فقد حرمته من السعي الحثيث إلى تلك الأرض إذا ما تخرَّمَه الموتُ التحفَ بنسغهـا، وأغمض عينيه على حلم وردي باذخ. كان من قبل ينقل أشجانه إلى ابنه فيتصدى له بيرود.

ـ الموت هو الموت، والأرض هي الأرض.

كان هذا الابن ما يزال يبحث عن تلك الحلقة المفقودة بين حياة تافهة وموت شريف، بين عيش مزر وبين تراب يضم الرفات؛

يُقبّله برفق وحنان بعيدا عن عوامل التفسخ في ديار الغربة بفعل الضغط والرطوبة والديدان، يطلق زفرة حرّى ولا يستبعد أن يكون كلام ابنه مجرد عزاء كلما سقط أحد الرفـاق القدامى.

- تلك الأرض ليس لها مثيل أبدا. الموت عليها شرف؛ والنـوم الأبدي تحت ثراها مطلبٌ يعز على الشيخوخة والعجز وقلة الحيلة تحقيقَه.

وإذ يشعشع الحب في الابن يتنهد بارتياح؛ إذ يضع أصابعه على تلك الحلقة المفقودة، ويدرك أنه وإن فاته الاستشهاد على تلـك الأرض فإن ابنه قمين بأن يفعل ذلك نيابة عنه. «عندها سيمتد خـط أخضر بلون تلك الأرض بين رفاتك في الغربة وبين ابنك حيّا أو ميتا. عندها تدرك تماما أن حياة هذا الابن ستكون مترابطة الحلقات من غير نقص، فإن أقعدتك الشيخوخة آخر الأمر فهنـاك هذا الابـن، وإن تساقط الرفاق واحدا إثر واحد؛ فهناك الشباب والحماسة والعشـق الرابض في رحم الأرض. كلها علامات مميزة على الطريق الممتـد بين المنافي وبين تلك الأرض المروية، ومازالت تروى بالدم».

يعترف أن ليس الموت ما يرهبه ولكن حين تساقط الرفاق تباعا، حين سقط عباس آخرهم، ألقته الحياة لا الموت على شاطىء مهجور تنعب فيه الغربان مهددة النوارس الفتية بالنزوح والهجرة إلى سمـاء معتمة بلا قمر.

قال لابنه العائد من رحلة عشق:

ـ لقد مات عمك عباس.

وحين زاد الغضب الناري على سحنته اشتعالا، أردف.

ـ ودفن على غير ما كان يشتهي في ديار الغربة.

هز الابن رأسه بأسف، فأبهجه أن يتحول هذا الابن إلى رماد يفتت الصخر بضربة صاعقة. قال بابتهاج.

ـ لن يبقى عباس في هذه الديار، سيحمله ابنه المقاتل إلى الأرض الطيبة حين يركض عليها كالمهر.

ثم انعطف إليه وقد حاصرت عينيه الدموع.

ـ إن مت لا تدفني هنا. انتظر حتى تكون الريح الشرقية، ثم أشعل في جسدي النار وراقب الدخان وهو يتوغل في السمـاء مسافرا

إلى الغرب. لا تحرق جسدي كله؛ انتزع قلبي ولفه مع الرماد في منديل أبيض، خذه معك وازرعه هناك تحت سنديانة عملاقة أو بجانب صخرة عملاقة على الشاطئ الحنون.

ثم والدموع تغدو نشيجا والنشيج بكاء متقطعا.

ـ أما أنت فإن لم تجد من يدفنك... لاتقلق، ستتولى النوارس والطيور المهاجرة مراسيم الدفن.

ثم أشرق وجهه فجأة شمسا أرهقتها الغيوم، وإذ مد ذراعه يطوق الابن ولامست نورا يركض في براري العتمـة تبخرت الدموع وأغرق في الصمت.

ما قبل الرحلة

كأنّما كنت على موعد معـه ذاك المساء، فلم تكن بي رغبـة في الخروج أصلا من الفندق في هذه المدينة التي سررت بها قبل عشرة أعـوام. خرجت وشمس الظهيرة قد ذهبت سطوتها وغـدت في لون النحاس، لأن يدا مجهولة حملتني من الفندق ولأنني لم تكن بي رغبة في الخروج أصلا؛ فبدا اللقاء وكأنما لم يكن مصادفة.

هتفت وأنا أضربه على كتفه بلطف.

- ابراهيم.

اتسعت عيناه بدهشة لم تمتص عبوسه المتمركز علـى الجبين . التقطتُ يده أهزها بحرارة. طوال خمسة عشر عاما لم أره. فارقَت عينيه الدهشة وحلّت محلَّها نظرة حادة؛ راح يدرسني بها مـن الرأس وحتى القدمين. لم يعرفني بعد. تذكرت أن لم تكن بيننا معرفة عميقة أو سطحية. أنا فقط من يعرفه. قبل حفنة من السنين جمعنا مخيم واحد ومدرسة واحدة. لقد رآني هناك. هذا مؤكد غير

أني بعكسه تماما؛ لم يكن لي حضوري المدهش فيعرفني الآن كما عرفتـه ويتذكرني.

أيقنت من نظرته أنه لا يتذكرني وحسب؛ بل ويزعجه أن يتطفل عليـه شخص مثلي لم يسبق له أن رآه من قبل. أحرجني اندفاعي على تلك الصورة المخجلة فحبَست يدًا بللها العرق؛ فيما ظل هـو يدرسني من الرأس وحتى القدمين، ولم يكف عن تحريك ذراعيه في كل اتجاه منظما حركة المرور.

ألقيت نظرة على بذلتي السوداء وربطة العنق وحذائي اللماع. أصابني بعض الارتياح، فمعرفة شخص مثلي أمر يدعـو إلى الاحتفاء لا التجاهل، غير أن شيئا من الاهتمام لم يبد عليه. أهملني تماما وتابع بحركات عصبيـة تنظيم حركة المرور نافخـا في صفارته بتحد وعناد.

فكرت بالهرب قبل أن يرتد بعينيه الجارحتين إليّ يعريني من ثيابي، ثم لمست ذراعه لمسا خفيفـا وخرج صـوتي مشروخا متقطعا:

ـ أولست إبراهيم! إبراهيم الفقير؟

حدجني بنظرة جانبية. قال بنبرة كحد الموسى:

ـ أنا هو... ماذا تريد؟

قلت بفرح لا يتناسب وبروده القاتل:

ـ إذن فأنا لست مخطـئًا.

سقطت ذراعاه إلى جانبيه فجأة. مد عنقه نحوي بحركة مسرحية قائلا بفظاظـة:

ـ ولكني لا أعرفك!

انفجر صوته في داخلي كقنبلة موقوتة. رفعت كلتا يدي أوزعهما بحركات غير منتظمة.

استدار بكليته إلي محدقا إلى يـديّ فسقطتا إلى جانبي بـلا حراك. أكّد ظني بأني أسخر منه بهذه الحركة حين قال مكشرا عـن أسنانه:

ـ أجل أنا شرطي... مبسوط!

ثم قبض على ربطة عنقي يهزها محنقا.

ـ لم أتوقع من أصحاب البذلات السوداء والربطات المرقطة أن يحترموا مشاعر الآخرين.

أسقطها على صدري بجفاء وعاد يحرك ذراعيه بحماسة متوترة. استدرت حتى واجهته تماما. قلت معتذرا:

ـ إبراهيم! لقد فهمتني خطأ. كان في نيتي القول أن سوء حظي ما جعلك تنساني، هذا ما كنت أود قوله بالضبط.

التفت إلي وقد تقهقر من مسامات وجهه الغضب. نامت في عينيه نظرة وادعة. خلت أن هناك ابتسامة تنمو تحت هذا الجلد الجاف؛ بعدما فقد الكثير من صفائه ونعومته أيام المدرسة... حسبت في اللحظة التالية أنه سيطوقني بذراعية ويعتذر مؤكدا أنه رآني من قبل ويعرفني، ولكنه أراد مداعبتي وحسب. ظننت هذا ولكن وجهه عاد إلى التجهم من جديد، سألني بحدة:

ـ والآن ! ماذا تريد؟

ابتسمتُ بمودة وتساءلت بأسف وعتاب:

ـ أهكذا تستقبل رجلا ظل يذكرك بالخير والحب عبر تلك السنين الفاصلة بين هذه اللحظة وبين زمان المخيم والمدرسة فيه؟!

انتشرت في وجهه ابتسامة وضيئة فعاد وسيما كما أعرفه. سألني بشيء من الزهو:

ـ هل قلت أنك كنت تذكرني باستمرار؟

ضربته على كتفه ملاطفا كيما يزول آخر معقل للكلفة بيننا. ضحك بلا تحفظ هذه المرة، وإذ تنبه إلى نفسه يضحك سكت فجأة متشاغلا بإحكام القبعة على رأسه الحليق. حيرني أمره فقلت جادا:

ـ كنت أطمع أن تمنحني ساعة من وقتك ولكن...

وأشرت إلى أرتال السيارات العابرة على الجانبين، فسارع إلى الاستدارة نحوي بلهفة، وضع يده على ذراعي وتشبث بها غريقا لاحت له قشة طافية.

ـ تستطيع أن تنتظرني هناك.

أشار إلى منعطف قريب.

ـ خلف هذا المنعطف يوجد مقهى صغير أجلس فيه أحيانا.

وألقى على ساعته نظرة امتعاض وقرف.

ـ بعد ثلاث عشر دقيقة واثنتين وعشرين ثانية أنتهي من يوم الحشر هذا.

تركته وأنا أتساءل عما غيّره إلى هذا الحد. بات يحسب الزمن بالثواني وقد عرفته يوم لم يكن في المدرسة الكبيرة غير بضع ساعات؛ لا يرفع عينيه إلى الشمس كما كنا نفعل لنرى كم من الوقت بقي على فسحة الغداء. ماذا حدث بالضبط؟

وضع النادل القصير فنجان القهوة أمامي مُرحبا. ابتسمت له ونظرت إلى ساعتي. كان الوقت حلزونة هرمة. لم أعتد أن أكون في انتظار أحد. لا أطيق الانتظار. هذه قاعدة يعرفها عني أصدقائي ومعارفي. لم أتخل عنها حتى مع جليلة التي كنت في يوم من الأيام أحبها وأنوي الزواج منها. كنت دائما أتركها تنتظر. أتخلص بهذا من لعنةِ الانتظار وأتعرف إلى رصيدي من الحب عندها. تماديت كثيرا فما عدت أجدها في انتظاري كما لم أنتظرها بدوري ولو لمرة واحدة. لو أخبرت إبراهيم إن أتى سيشعر بالزهو قطعا، ولكن هل سيأتي كما وعد؟

شرعت أقطع الوقت بشرب القهوة فنجانا إثر فنجان وبالنظر إلى لوحة إعلانات سينما مجاورة. حاولت أن أتذكر آخر مرة شاهدت

فيها عرضا فَلَمْ أفلح. حسبي أنه انقضى زمن طويل، فقد استولت كلية الهندسة على كل وقتي وها هو العمل في الخارج يمضغ هذا الوقت منذ عشر سنين.

إنه عمر يشمر عن ساقيه يسابق طيرا جارحا وقد كان في المخيم هناك أبطأ من سلحفاة.

لمحت النادل يبتسم لي مشجعا وقد زادت ثقته بهذا المقهى المتواضع بعدما اصطاد زبونا محترما؛ لا يكاد ينتهي من فنجان حتى يطلب غيره. ترى ماذا سيكون شعور إبراهيم حين يجدني في انتظاره؟ حين يعرف أني مهندس راتبي في شهر ضعف راتبه في سنة كاملة؟ لم أكذب عليه. لقد كنت أتذكره وأتساءل ترى أي وظيفة مرموقة ومركز محترم يشغله؟ ترى هل ظل مهزوما كما عرفته أول مرة؟ شخصيته الجذابة ومواهبه وذكاؤه كانت كلها تقنعني بأنه لابد يشغل مركزا مرموقا؛ أما الهزيمة فلها قصة طريفة هي التي تدفعني إلى تذكره، هي التي غرست في رأسي ملامحه عبر هذه السنين، وجعلته محسودا من الجميع آنذاك في المدرسة والمخيم على حد سواء.

بدأ اسمه يلمع حين أقامت المدرسة في منتصف العام الدراسي مهرجانا ثقافيا كان من ضمنه تمثيلية قام أحدهم فيها بدور الناسك؛ يدافع عن مبادئه بشراسة ويدحر إبليس المرة تلو المرة. استطاع بلحيته البيضاء وعكازه وظهره المحني وصوته الواثق الحاد دفاعا عن المبدأ؛ أن يشد الأبصار إليه ويجعلنا نتساءل عمن يقوم بهذا الدور الصعب المتقن؟ حتى بعدما أغراه إبليس بالمال و نام على صدره، حتى بعدما فقدتُ بهزيمته ثقتي بأشياء كثيرة لم أستطع غير الإعجاب بمن مثل دور الناسك المهزوم وأجاد.

صرت أهتف مع الهاتفين بعدما سقطت العمامة واللحية كما سقط الناسك «إبراهيم... إبراهيم » ووجدتني بعدها أتبعه بلا إرادة حيث يذهب... يتنقل في الساحة بخطواته الواثقة ورأسه المرفوع يلملم نظرات الإعجاب من الطلبة. كانت هذه هي البداية.

انطلق بعدها في سماء المدرسة والمخيم كالصاروخ، وصرنا بدلا من القول «ستقام اليوم تمثيلية » نهتف بفرح «سيمثل إبراهيم» وقد أدرك الأساتذة سر ضعفنا؛ فصاروا يهددون مثيري الشغب بالحرمان من رؤية إبراهيم ممثلا، وعلى الرغم من أنه مثل أدوارا كثيرة وأجاد إلا أنه ظل في أذهاننا سجين دور الناسك، لذا

ظللت أتساءل كلما تذكرته، ترى هل ظل مهزوما؟ أم تراه يشغل وظيفة مرموقة؟

لمحته يطل برأسه أولا من صدر المنعطف، ثم يعبره بمشية متمهلة. تلك المشية لم يغيرها رغم أن خطواته قد فقدت الكثير من ثباتها؛ وحضورها على أرض كان يشعر فيما مضى من سنين أنها تهتز تحت قدميه. حين رآني جالسا مضى إلى واجهة العرض وسلم نفسه لها. بدا أنه نسيني تماما فغالبت نفسي على النهوض والصراخ فيه «أنت تافه، وقح مغرور» ثم أمضي إلى الفندق ألتمس النوم بعدما أُهِنت من شخص دلقت نفسي عليه نزولا عند إلحاح ذكريات ماضية.

انتزع نفسه أخيرا من أمام الواجهة، وحين اقترب مني كان وجهه مربدا كأنما تلقى لطمة قاسية من يد حقود. رفع إبهامه وجلس صامتا. تحيرت كيف أبدأ معه الحديث وقد استنزف من قبل جهدي المتواضع بهذا الصد إلى أن استخلصت من شفتيه ابتسامة أجهضها قبل أن تستدير. قلت بسرعة وآلية:

- أهلا... أهلا إبراهيم.

كانت عيناه جامدتين تماما كأنما لا يرى أو يسمع. تابعتُ نظرته فكانت لا تتزحزح عن الواجهة؛ حيث رأس كبير حجبت معظمه طاقية مخططة بشتى الألوان. تصورت إبراهيم قبل أن تسقط العمامة عن رأسه ويصرعه إبليس فحدست أنه يتذكر ذلك الدور ويعيش فيه. أيقنت أنه حين حدد لي اللقاء هنا وحين يأتي أحيانا كما يقول؛ أن اختياره لهذا المقهى لم يكن محض مصادفة.

حين لمست ذراعه توقعت أن ألمس تمثالا من شمع بارد، بيد أنه لدهشتي كان يزخر بالدفء. هززته برفق ولما التفت إلي التفاتة خاطفة وبختني التفاتته على أنني أيقظته من حلم مدهش. قلت بلهجة تستثير غروره:

- لقد وعدتني بإعطائي ساعة من وقتك!

انتفض وحاول أن يستدير بيد أن الواجهة ظلت تسحبه مني باطـــــراد.

- أتصدق أن هذه أول مرة أنتظر فيها أحدا.

دارت عيناه دورة كاملة قبل أن تستقرا على وجهي تبحثان عن الصدق هناك. صدق بأسرع مما توقعت وسمح لابتسامة خجلى أن

تتمدد على وجهه طاردة ما يعتريه. ثم أفلتت من صدره زفرة حرى أحنى لها رأسه وتساءل بفرح طفولي:

ـ أحقـــا.

أمسكتُ بكلتا يديه أهزهما وصحت بالنادل:

ـ هات قهوة لعمك إبراهيم.

لاحظت الدهشة على وجه النادل من أن شخصا مثلي يرفع عقيرته بالصياح، بل إن إبراهيم ذاته اندهش وراح يدرس بذلتي وربطة عنقي المرقطة. قلت وأنا أضغط يديه بحرارة:

ـ لا تنس أننا أبناء مخيم حاربنا فيه الجوع والعري والعقارب.

ضحك كمن لم يضحك منذ سنة، ثم كف عن الضحك فجأة وسألني بتوجس:

ـ ماذا تشتغل بالضبط؟

فاجأني السؤال ولهجته المسنونة تتكسر عليها أمنية دفينة ألا تكون بيني وبينه هوة شاسعة لا ترقى إليها وظيفة شرطي بأي حال من الأحوال. أطلقت ضحكة مبتسرة أخفي بها ارتباكي وما

عسـاي أسببه له من إحراج. انتهزت فرصة حضور النادل بالقهوة فقلـت متـوددا:

ـ هل تمانع لو طلبت لك نارجيلة أيضا؟

تفرس بي متشككا فصحت بالنادل آمرا.

ـ اثنين نارجيلـة.

واستطردت محاولا امتصاص الهوة التـي تتسـع كلما حاولت تضييقها وردمها بيننا.

ـ أذكر ونحن في المخيم حين كانت تعجزنا الحيلة في جمع أعقاب السجائر من أمام الدكاكين والمقاهي؛ أننا كنا ندخن الميرمية والبابونج، وأحيانا روث الماعز.

توقعتُ أن يضحك أو على الأقل أن يهز رأسه موافقا، بيد أنه انتفخت أوداجه وقال بكبرياء:

ـ لم أجمع الأعقاب، ولم أفعل هذا الذي تقول... لم تـكـن هذه السخافات من ضمن عاداتي.

سررت أنني بعثت فيه روح الأنفة والكبرياء ولو لوقت قصير ينسى فيه إلحاحه الخفي على معرفة كيف تبدو وظيفة الشرطي؛ مقارنةً بما حققه أقرانه ممن كانوا يدبون خلفه كالصراصير في ساحة المدرسة وطرقات المخيم.

قلت بلهجة بان فيها الحسد:

- أعرف... كنت مشغولا عنا بالتمثيل. كنت نجم المدرسة، بل نجم المخيم بلا منازع.

اغترف من صدره زفرة أخرى، هبت طلائعها على وجهي ساخنة كأنما أرسلها صدر ممرور. ثم أشرق وجهه بذكريات جميلة فلم أتحكم بيدي وهي تشير إلى الواجهة:

- كان بإمكانك أن تغدو ممثلا.. وممثلا كبيرا.

نامت عيناه حيث أشير وخلت أنه لن يسحبهما من هناك وسينساني من جديد، ولكنه عاد يطبع على وجهي نظرة وادعة قائلا بأسف:

- هذا هو المفروض... ولكن ترى ...

أشار الى بذلته بقرف ونكس رأسه بحزن، فقلت باعثا فيه نبض ذلك الماضي السحيق:

- مازلت أذكر دور الناسك الذي أديته ببراعة فائقة.

لم يبدُ عليه أنه نسي ذلك الدور ولو للحظة، ولكنه اندهش وحسب إذ سأل بلهجته الطفولية المحببة؟

- هل حقا ما زلت تذكر؟!

- ذلك الدور شأن كل الأدوار التي أديتها لا تنسى.

ركضَت على الفور حمرةٌ صاخبة في وجهه وملامحه. وضع ساقا على ساق وراح يعب من النارجيلة أنفاسا عميقة؛ يبقيها في فمه ثم يدفعها بانتشاء من أنف شَمَخَ فجأة كأنما أحس للتو وحسب أنه موجود في هذا الوجه الوسيم. قال أخيرا بلهجة غاب منها الأسف تماما:

- لقد التقاني الكثيرون من أبناء المخيم. مهنة الشرطي تتيح لك أن تلتقي في عرض الشارع بالكثيرين... كلهم بلا استثناء كانوا يصافحونني ويمضون بعدما يفاخرون بصفاقة أنهم تغيروا إلى الأفضل.. إلى أفضل من شرطي.

ومط شفتيه بمعنى «لا يهم» ثم أطبق بهما على الخرطوم الطويل وسألني بلهفة أنكرتها عليه في البدء:

ـ هل تعتقد أن من الواجب علي أن أتغير أنا أيضا؟ أعني هل بالامكان أن أغير هذي المهنة؟

بت مقتنعا أكثر أنه لم يلاق فرصة أفضل لينطلق إلى مجـالات أرحب، أو أنه لأمر ما تقاعس وتشبث بأول وظيفة لاحت له.. لهذا قلت بآليـة بحتــة:

ـ مؤكـد... هذا مؤكد.

عاد يعبّ أنفاسًا عميقة ويدفع الدخان من أنفه الشامخ ولما بدا لي أنه يعيش هذه اللحظات في عالم آخر؛ بادرت إلى النهوض. حدّق إلي باندهش ثم قال معاتبًا:

ـ الوقت لا يزال مبكرا!

ثم طوى الخرطوم على جسد النارجيلة وقال ضاربا على صدره:

ـ أستطيع أن أعطيك ما شئت من الوقت.

ولما تعللت بالإرهاق من السفر أحنى رأسه على مضض ولكنه لم يغفر لي أني دفعت للنادل القصير تلك الطلبات. ظل يعاتبني حتى إذا حاذينا واجهة العرض توقف هنيهة مشيرا إلى الممثل ذي الرأس الكبير:

ـ أترى إلى هذا؟ ليس ما يؤديه بالدور الصعب. أستطيع أن أقوم بالدور وأنا مغمض العينين.

وظل يعاتبني على أني دفعت الطلبات إلى أن وصلنا إلى باب الفندق. تمنى لي ليلة سعيدة ثم صافحني ومضى دون أن يكرر السؤال عما أشتغل. عندها فقط أدركت أنني لم أحدد لقاء آخر أقول له فيه كل شيء وأسمع منه كل شيء... هممت أن ألحق به بيد أنه كان يغذُّ السير بحماسة كأنما ليلحق بقطار يزفر قبل الرحلة، أو ليدرك طائرة على وشك الإقلاع.

البحثُ عن راية

لا شيء يثير حفيظتَه ويخرجه عن طوره كخلف الوعد. هذه صفة يعرفها عنه أصدقاؤه ومعارفه الكثيرون والمعجبون. أجل المعجبون. فهو مصارع محترف ومشهور. ولأنه مشهور يضيق بمن يضرب موعدا ويتأخر به. يخشى ألا يأتي بالمرة كما حدث له مع خالد أعز أصدقائه على الأطلاق.

بالأمس ظل ينتظره ساعة كاملة في هذا المقهى. لم يأت فمضى يقطع الوقت بتوزيع النصائح على الناشئين؛ وبتوقيع اسمه الصريح «معزوز الأعرج» في دفاتر المعجبين، بيد أنه لم يستطع نسيان أن أحدهم قد سخر منه ورماه في انتظاره ساعة كاملة.

لم يعتد هذا من خالد أو من غيره. خالد بالذات عليه أن يفي بوعده ولا يتأخر، فهو أكثر من يعرف هذه الخصلة فيه. إذا ما جاء اليوم فعليه أن يبادر إلى الاعتذار وإلّا فالقطيعة لا بد حاصلة. فمن يخلف وعده مرة لا يُوثق به؛ كما أنه لا يثق بالآخرين ويتقصدهم بالسخرية. وهو لا يطيق أن يكون موضع سخرية من أحد وإلّا لسالَ الدم أنهارا».

تنبه على صوت النادل وهو يأتيه بالقهوة:

- ارحم نفسك يا بطل فهذا الفنجان العاشر.

سدد إليه نظرة أجهضت ابتسامته المترددة. تناول الفنجان ودلقه في جوفه دفعة واحدة، ثم حطّمه على الطاولة متحايلا على النار الـتي نشبت في حلقه. صاح:

- إلـيّ بآخـر.

مضى النادل هرولة فأعجبته سطوته ورهبة يزرعها في عيون مـن ترميهم الظروف في طريقه. صرف بأسنانه غيظا.

- كان عليه ألا يخلف وعده معي.

ولما تذكر أنه اليوم الثاني الذي يقطعه بانتظاره؛ حاصره الغيظ وأحس أنه جرذ حقير. تلفت حوله متمنيا لو أن حادثة ما تنشب في المقهى فيعرض من خلالها قوته. ولما وجد الكل ساكنا في مكانه يدخن ويشرب الشاي ويلعب النرد أو الورق أصابه اليأس؛ كما أبهجه أن وجوده تحديدا يجعل أسرع الرجال إلى الغضب بحرا من التسامح والحلم.

عاد النادل بفنجان آخر. وضعه أمامه مطبق الفم كأنما يخشى أن تفلت منه كلمة تثيره، ولما رآه يبالغ في الصمت والانحناء أطلق ضحكة صاخبة وقال مازحا:

- لا تنس... فهذا الفنجان الحادي عشر.

ضم يديه إلى صدره وقال بصوت مبحوح:

ـ الله يعطيك الصحة والعافية.

ربت على كتفه المحني وسأله بمودة:

ـ لعلك لا تمانع في أن تأتيني بنارجيلة على كيفك!

تلفت حوله مزهوا وقد أخذ البطل رأيه في مسألة خطرة كهذه. تابعه وهو يذهب مسرعا بكثير من الغبطة، وفي الحال نبتت في رأسه فكرة أقلقته. رغم جبروته وقوته لا يعدو كونه طفلا يغضب لأتفه الأسباب؛ ويرضى لسبب أشد تفاهة. وحاول أن يتذكر ذاك الأمر الهام الذي ينتظر صديقه من أجله فلم يجد؛ بل صدمته حقيقة أنه يلتقيه كل يوم تقريبا وبلا موعد سابق، ثم يروح يضرب معه الشوارع بـلا هدف يذكر؛ سوى أنه يسري عن نفسه بعد تدريب شاق أو مبـاراة حاسمة.

أما خالد فما يجنيه من هذه الصحبة أقل من ذلك بكثير، فهو لا ينفق أي جهد في وظيفته كما أنه لا يتباهى بهذه الصحبة كما يفعل الآخرون. على العكس من هذا تماما. يصرح بلا مواربة:

ـ أنا أصادق معزوز الطفل. معزوز الذي كنت أركض معه في المخيم حافيا، عاري الصدر وليس هذا المصارع المحترف.

لم تكن تعجبه هذه الصفة؛ ولكنه بات يوقن أن تلك الطفولة هي ما حمت ثوب الصداقة من أن تمزقه يد الزمن... بات يؤمن أنه طفل كما يؤمن دائما بأن خالدًا هو من زيَّن له العودة إلى المصارعة بعدما افترسه اليأس، أو كاد بعد تلك الحادثة التي كان خالد أيضا هو السبب فيها.

إنه يذكر ذلك كما لو أنه حدث اليوم أو البارحة على الأكثر؛ رغم أن الزمن قد دار ما يقارب العشرين دورة. كان يومها في العاشرة. كان مصارعا أيضا ولكن على طريقتـه. وإذ كان اسمه الآن يركض في الشوارع وصوره تملأ الجدران؛ فإن اسمه آنذاك كان أيضا يتردد في جنبات المخيم تردد الصدى في جوف معتم.

لم يبق صبي في مثل عمره أو أكبر إلا وصرعه ونام على صدره يضحك؛ لذا وجد نفسه معروفا أيضا لدى «إحسان» أحلى صبية

في الحارة؛ ولم يجد عناء في التودد إليها وربما هي التي بدأت معه، وأحاطت نفسها أو أحاطها بسياج عال فلم يرشقها الصبيان بالغزل وهي تلصق حقيبتها إلى صدرها البكر؛ أو وهي ذاهبة إلى النبع أو عائدة منه بالجرة.

لم يتحرش بها الصبية. لم يتجرأوا ولكنه كان يغار عليها من الطيور المهاجرة وهي تعبر سماء المخيم مسرعة كأنما تطاردها عفاريت.

وحين قال لها بحزم:

ـ لا تذهبي يا إحسان إلى النبـع.

تحملت الضرب من أبيها أسبوعا كاملا. كان اعتقادها أن حبه إياها من الأمور التي تستحق أن تحتمل من أجلها العذاب. كان يفاخـر الصبية بإحسان أكثر بكثير من قوته ومهارته، ولكنها ذهبت في غمضة عين إثر تلك الحادثة التي فقد فيها ثقته بنفسه كمصارع سيكون له شأن كبير.

يومها أقبل خالد عليه وقد دس ذراعه تحت إبط صبي أسمر. كان يرى ذلك الصبي لأول مرة، وفهم من ملامح خالد أنه قد حدثه عنه كثيرا. أيقن من ذلك حين قال مفاخرا:

- هذا هو معزوز.

أدرك أنهما قد تراهنا على شيء ما؛ بيد أنه لم يلاحظ على الصبي أي خوف أو اهتمام كما توقع، بل إنه راح يحدق إليه بثبات ويمسح أنفه الشامخ. أزعجه هدوؤه وسولت له نفسه بصفعه بيد أنه تردد إكراما لصديقه الذي قال باستهانة كأنما لا يهمه حقا أن يعرف اسم الصبي.

- سرحان ابن عمي.

وربت على ظهره ضاحكا.

يقول إنه على استعداد لأن يصارعك، بل ويصرعك! تصور!

ألقى على الصبي نظرة فاحصة وإذ تصدى له بعينين ثابتتين ونظرة لا تلين؛ تسلل إليه بعض الخوف، وأدرك أن ما منعه من صفعه حال رآه ليس احترامه لخالد. شعر لأول مرة في حياته بخفقان غريب يجتاح قلبه، والصبي في حالة انتظار أن يبادر هو

بالموافقة. اجتاحته خيول الرهبة وإذ انتبه أنه واقف في ساحة يطل عليها بيت إحسان؛ تماسك وساعده خالد في مطاردة فلول الخوف حين قال بلهجة اختلطت فيها الاستهانة بالشفقـة:

- إنه من مخيم الجلزون... لهذا لا يعرف من تكون بالضبط.

ثم أردف بثقة زائدة.

- على أيِّ حال فأنا راهنت عليك.

حدق إلى الصبي كرة أخرى، كان يرتدي قميصا مرقطا تمزق من تحت الإبطين. رآه يخلعه بهدوء ومن ثم يضعه بين يدي خالد بانتظار الصراع. ولما كانت المرة الأولى التي يشاهد فيها مثل هذه الحركة خمن أن سرحان ذائع الصيت في مخيم الجلزون مثله تماما في مخيم عين السلطان. كانت هذه البادرة كفيلة بعودة الخوف إليه لولا أن أقنـع نفسه بأن الخوف على القميص هو ما جعل الصبي يخلعه، ولولا أن لاحت إحسان في تلك اللحظة من على المصطبة؛ لما دبت فيه الحماسة واندفع نحوه مكبلا يديه بحركة خاطفة تلقاها ببرود، وحين اعترض خالد بانتظار قال الصبي مهونا:

- لا بأس.

وبحركةٍ رشيقة فكَّ ذراعيه. لا يدري كيف ولكنه فكَّهما وطوى رأسه تحت إبطه. ضغطه ثم تناول يده. لوَاها ولم ينتبه لنفسه إلا وهو يطير في الهواء ثم يرتطم بالأرض مثيرا من حوله غبارا ناعما تسلل إلى منخريه فصار يعطس.

أذهلته المفاجأة وتمنى لو أن إحسان لم تره، كما تمنى أن تراه وهو يندفع ثانية محاولا الإمساك بإحدى ساقيه... حاول ولكن وجد أنفه يرتطم بما حسبه بادىء الأمر صخرة صلدة، ورأى من الغبش والدموع والدم النازف أن لم تكن تلك الصخرة سوى ركبة سرحان. دار حول نفسه كالثور الهائج، باغت الصبي وأفلح بإمساك ساقه. تلك الساق بالذات.

أيقن أنه سيطرحه أرضا ولا ينهض عن صدره قبل أن تلوح له إحسان بيدها أنها رأته؛ ولكن لدهشته أيضا لا يدري كيف وطِئ الصبي على يديه المتشبثتين بالساق، ولا كيف قفز فوق رأسه حتى صار هذا الرأس تحت إبطه من جديد. ضغطه ثم لوى جذعه بكامله وأسقطه أرضا وغرس تلك الركبة في صدره كالوتد.

نهض الفتى سريعا ثم ربت عليه وحاول أن يساعده في النهوض؛ ولكنه دفع يده بعيدا وراح يكيل له الشتائم كيفما اتفق. ولأنه كان يسمعُ المهزومين أمامه يلوذون بالصمت أو الشتائم أيقن أن دلائل الهزيمة قد حاصرته؛ بيد أنه لم يشأ الاعتراف. حاول النهوض ثانيـة ولكنّ خالدًا أسرع إلى الإمساك به مشيرا إلى أنفه المتورم ودمه النازف.

ـ كفى... كفى يا معـزوز.

وشرع يمسح الدم يساعده ذلك الصبي الذي أنشأ يعتـذر بود:

ـ أنا آسف.

حدجه بنظرة غيظ وحاول أن يستغل فرصة انحنائه فيباغته. يسقطه أرضا ولو مرة واحدة، ولكن إحسان كانت قد توارت فلم يجد مدعاة لرد الاعتبار.

لقد ذهب سرحان ولم يره بعدها أبدا، بيد أن جرحه من تلـك الحادثة لم يندمل؛ كيف وقد ألغى ذلك الصبي الأسمر الأشعث اسمه في المخيم وفي عيني إحسان؛ التي تمرَّدَت على أوامره

وصارت تخطـرُ بالجرة إلى النبع، وترخي أذنيها لغزل الفتيان الذين ما عادوا يحسبون حسابًا لسطوته.

لم يعزّهِ عن تلك الحادثة، عن خسارته إحسان إلا بعد أن صار مصارعًا محترفًا يشار إليه بالأصابع العشر. وخالد الذي كان السبب غير المباشر في خذلانه وإحساسه بالهوان هو من وزع على جسده المنهك؛ ونفسه الذابلة أشتال الأمل. أرجعَ السبب في هزيمته إلى إحسان الواقفة له على المصطبة بالمرصاد، ولما سأله: كيف تكون إحسان سلاحا ذا حدين؟ أجابه بلهجة الواثق المؤمن بقدراته الخارقة:

ـ كانت عيناك طوال الوقت عليها، لذا تركت سرحان يهاجمك دون أن تكون في كامل وعيك. لم تستعمل أساليب الكر والفر التي تتقنها، لذا تركته يتغلب عليك.

سره أن يأتي خالد بهذا المشجب يعلق خذلانه عليه، هز رأسه مؤمنا؛ ولكنه حين خلا إلى نفسه وجد أن السبب الذي عزا خالد إليـه الهزيمة كان وحده الداعي لغلبته لو استطاع، وإذ ذاك نقم عليه وحمّله السبب في ضياع سمعته وانقلاب إحسان عليه.

لم يغفر له فعلته تلك رغم يقينه المطلق بأنه قد راهن عليه آنذاك؛ وأنه احترم مشاعره بعدم الإتيان على ذكر ذلك الصبي. لم يذكر أنه استحضر سيرته سوى مرتين، كان ذلك بعد حزيران، بعد أن أفرغ اليهود السكان من مخيمي الجلزون وعين السلطان ولاحقوهم حتى شرقي النهر.

أخبره بشكل عابر أن ابن عمه رفض الخروج من المخيم مع من خرج. هذه كانت المرة الأولى ولم يشعر تجاه سرحان بأي ضغينة، على العكس أكبرَ فيــه الصمود في وقت خرج هو كفأر مذعور. أما المرة الثانية فكانت حين أخبره بأن سرحان حكم عليه بالإبعاد لنشاطه ضد الاحتلال؛ فانضم صراحة لصفوف المقاومة ضابطًا كبيرا.

لم ينس ذلك الفتى بوجهه الأسمر وشعره الأشعث وقميصه الممزق تحت الإبطين؛ كما لم ينس أن خالدًا هو من طمره باليأس، ثم عاد وانتشله قبل أن يلفظ أنفاسه حين قال له بلهجة حاسمة والملل ينشب فيه أظفــاره:

ـ أعتقد أنه قد حان الوقت كي تعود إلى المصارعة!

رحب بالفكرة على الفور وقال باندفاع:

- ولمَ لا؟

وأسلم جسده وروحه لتدريب مضن أوصله عن جدارة إلى سدة الشهرة من أول مباراة.

لم ينس لخالد بعدها أنه أول من نفخ في جمراته الكابية، وأشعل فيها الحماسة حتى بات بطلا مرموقا، وحتى أضحت صوره تملأ الشوارع والساحات؛ تُزاحِم صور الشهداء الذاهبين برصاص اليهود إثر عمليات جريئة.

تنبه إلى أنه يطأطئ رأسا أثقلته الذكريات، وحين رفعه طالعه وجه خالد وهو مقبل نحوه متجهمًا عابسًا على غير عادته، حسب أنها مجرد حيلة يمتص بها نقمته عليه؛ ولكن حين اقترب أكثر وصلته أول إشارة إنذار بأن صديقه قد هرم فجأة؛ وهو الذي كان يهز كتفيه بلا مبالاة لأعتى الكوارث. رآه يرفع يدا ذابلة دون كلام ومن ثم يرمي بجسده على المقعد. ظل صامتا ثم قال فجأة بصوت مذبوح:

- قتلـوه.

- حدّق إليه بخوف ولما ظل صامتا أمسك بكتفه يهزه بعنف.

ـ خالد! ماذا جرى؟

ولما ظل يتفرس فيه بعينين انطفأ منهما البريق، عاد يهزه بعنف ويصرخ:

ـ خالد! من القتيل ومن القاتل؟ تكلم.

تقوّست شفته السفلى كمن يتهيأ لبكاء لا ينتهي، ثم مد يده إلى جيبه، تناول منها صورة ودفعَها إليه. قبض عليها بكلتا يديه يحدق إليها بإمعان وحرص. رغم هذا الشعر المصفف وهذه الياقة المنشاة، ورغم أن صاحبها قد ناهز الثلاثين إلا أن هاتين العينين القابضتين على نظرة جريئة ساخنة؛ دلتاه على أنها لذاك الصبي الذي مرَّغ وجهَه ذات يوم بالتراب.

إنه من شجَع إحسان دون أن يدري على أن تعصي أوامره. ما يزال في هاتين العينين ذاك البريق المحبب، ذاك التحدي الصارم دون جفاء. ربت على كتف خالد مهونا ثم طوى الصورة ووضعها في جيبه بحرص؛ وقد أدرك كيف قضى سرحان نحبه. لم يجد كلمة واحدة يقولها لصاحبه. لقد اجتاحه الخزي تماما.

لم يشعر بأنه صرصار قميء كمثله الآن. لقد اعتاد أن يرى صور الشهداء على الجدران بجانب صوره وهو يستعرض عضلاته وقوته؛ بيد أنه لم يكن يرى غير هذه العضلات البارزة، وأحيانا كثيرة تثير الملصقات تلك حفيظته، يرمقها بحقد إذ يرى أنها تقاسمه الشهرة سواء في تحلق الناس من حولها، أم في تدفق الحياة فيها، في العيون خاصة كأنما لم يطفئها الموت.

لهذا كله لم ينضم إلى صفوف المقاومة بل أعلن أكثر من مرة أن هذه تحاربه من حيث تشعر أو لا تشعر؛ حين تزاحم ملصقاتها إعلانات مبارياته وهو يقوم بحركة موفقة، أو وهو يتهيأ للوثوب إلى صدر الخصم.

اختلس نظرة مترددة إلى وجه خالد الشاحب فأيقن أكثر أنه إنما كان إلى وقت طويل يستعرض قرنيه أمام الفضوليين والعاطلين عن العمل، عن فعل شيء جاد، كما هجس أن سرحان ربما وعى هذي الحقيقة مبكرا «هذا مؤكد بدليل أنه رفض الاستمرار في تمثيل دور الثور الهائج إلى ما لا نهاية؛ وصبّ قوته ومهارته في مجال لا يعودُ بالنفع على تلك الالآف المنتظرة الفرج في الخيام.

كان جديرا بـأن يصبح مصارعا محترفا... أجدر منك بكثير ولكنه رفض، إذ لم ينس أنه طرد من مخيم الجلزون وأن أباه من قبل طُرِدَ من مدينة يافا... أما أنت فما أسرع أن نسيت... تلهو، تلعب، تتسكع، وتمد وجهك للمعجبين يلصقون عليه طوابع الزيف. كان أجدر منك في كل شيء ولكنه خلع عنه الشهرة والمال والجاه؛ كما خلع عنه قميصه يوم أن مرغ أنفك فـي التراب أمام إحسان... تلك الفتاة كانت عاقلة جدا حين تركتك كالجرذ وإن يكن تركُها إياك في حينه غير مبرر، ولكنها تركتك ولم تعد تذكرك كما لم يعد ذاك الفتى سرحان يذكرك.

هذا مؤكد... وإن فعل فإنما ليهز رأسه بأسف: مسكين عرفته ثورا، ولا يزال ثورا. أتراه لـم يسأل خالد عني؟ ولم يقل رأيه الصريح بي؟ إن كان فعل فهذه مصيبة، وإن لم يفعل فتلك الكارثة بعينها... لقد كنتَ تذكره... تذكره باستمرار ولكن كلطخة عار عليك أن تمحوها بشتى السبل؛ وقد غدت لك ذراعان تفتتان الصخر... هذا سبب آخر لإحساسك بالخزي والهوان».

تطلّع إلى خالد وسأله فجاة:

- ماذا كان يقول لك عني حين تلتقيه؟ هه! ماذا كان يقول؟

نبتت على زاوية فمه ابتسامة ساخرة وقال باستهانة كأنما يبصق عليه:

- وماذا تريده أن يقول؟ هل كنت ترغب في أن يسبح بحمد البطل؟

اعترضت حلقه غصةٌ مريرة جاهد في طردها.

- أعني تلك الحادثة بالذات. ماذا قال عنها؟

همهم بضحكة كسيح وهو يلقي على النارجيلة نظرة قرف واستهجان.

- تلك الحادثة انتهت منذ زمن كما انتهى هو قبل يومين.

ثم وهو ينهض فجأة صارخا:

- لا، هو لم ينته... هو لم ينته... أنتَ من انتهيت. أنت من ولِدَ ميتًا، أما هو... أما سرحان فقد كتبت له الحياة حين قتلوه.

حدق إليه هنيهة ثم نكس رأسه يقضم أظافره «أين كان يخبئ كلَّ هذا القدر من الاحتقار لك؟ ولم العجب؟ فأنت أيضا بت تحتقر نفسك. تحتقرها كثيرا ولا تدري أين كان هذا الاحتقار مخبوءا!

إذن فهو لم يذكرك قط في وقت كان يعشش في رأسك كابوسا مزعجا».

رفع رأسه ببطء فرأى خالدًا ما يزال يتفرس فيه باحتقار، وحين نطق كان مصرا على أن يبصق نحوه الكلمات.

ـ ماذا كنا نفعل غير التسكع في الشوارع وغير الثرثرة الفارغة عن بطولاتك؟ هه! ماذا نكون غير أني موظف حقير وغير أنك مصارع أشد حقارة؟!

هاجمه الخزي بشراسة مرعبة فماتت يده على خرطوم النارجيلة؛ فسقط أرضا كما سقطت يده إلى جانبه دون حراك، ثم نهض. تناول الصورة وألصقها إلى صدره وحين مر على إعلان لإحدى مبارياته القادمة ألصق الصورة عليه، على قبضته المشرعة... ومضى... مضى يبحث عن هدف جديد يحملُه رايةً غير هذي القبضة المشرعة.

الشمسُ كانت هناك

لحظة أن رأيته انداحت في صدري دوائرُ الفرح، وبعدها لم أستطع الجزم إن كنت فرحا بلقائه هنا في الغربة؛ أم أنها محض مصادفة كشَفت عن كره بيننا قديم. مع هذا سبقت ابتسامتي العريضة يدي. ضغطت يده بحماسة، وهمت أن أحتويه بذراعي أفرّغ على وجهه الجامد فرقة عشرة أعوام؛ هي المدة الفاصلة بين هذي اللحظة وبين تخرجنا من المدرسة الثانوية في مخيم عين السلطان.

وإذ تسربت إلى يدي برودة غريبة سحبتُها موقنا أنه تغيّر وما عاد يعني العناق لديه عربونا للصدق والوفاء؛ كما كنا هناك في المخيم الذي غادره قبل عشرة أعوام في حقيبة مستر «رينج» عالم الآثار المراوغ؛ إلى حيث الشمس التي تغيب طويلا تحت أكداس الغيم، ولكنها تسطع دائما في النفوس على حد قوله المكرر.

كنتُ أيامها قمينًا بأن أصدقه، كان رينج حاويًا عجيبا، علقني على حبال الأمل من رموشي ثم تركني أهوي من حالق؛ حين وجد من هو أكفأ مني ليرقد على بيضه الملون. وجد «محمود الطويل»

ومحمود لم يكن طويلا؛ إنما شهادة الميلاد وشهـادة أمه بائعة الترمس والماء في مركز توزيع المؤن.

كنا نتحلق من حولها ندفع إليها النقود القليلة فتدفع إلينا الحبات الصفراء المكتنزة في قراطيس من ورق مكتوب عليه بالرصاص. ننقب فيها بعدما نلتهم الحبات التهاما علنا نعثر على شيء من آثار محمود في المدرسة؛ لنفاجئه ونحرجه فيتخلى عن عنجهيته وغروره. كنت أنا على وجه الخصوص أنقب بحرص وحرقة.

لقد كنت أغار منه كثيرا رغم ذكائي المفرط، ورغم أني أزاحمه كل عام على المرتبة الأولى إلا أنه كان يخلفني وراءه طيرا مقصوص الجناح.

كان حاد الذكاء. يكفي أن ينظر إلى مسألة في الحساب بإحدى عينيه حتى يفك رموزها وطلاسمها... لذا أطلق عليه الأساتذة والطلبة لقب «العبقري» وإن قال أحدهم «محمود» فإنما ليعنه هو بالذات من دون مئة طالب أو أكثر يحملون الاسم نفسه. لهذا كنت أغار منه، أحترق في أتون غيرةٍ لا تخلو من الحقد والحسد.

ربتُّ على كتفه أقطع نية العناق في منتصف الطريق، مداريا في الوقت نفسه خجلا من حماستي المتدفقة. قلت وأنا أهرب بعيني

إلى فناء الجامعة حيث تبعثر الطلبة أزواجا وجماعات من الجنسين:

- أهلا محمود.

حتى هذه اللحظة رأيت تغيّرَه ضربا من الحدس لا أكثر رغم ملامحه الباردة، رغم فتوره القاتل، ولكن حين رد تحيتي دلتني لهجته أنه بات يعتبر العربية لغة من الدرجة الخامسة. فتح شفتيه بمقدار يسير، أمّا وجهه فقد أدار ظهره للدهشة من لقائي.

ظلت ملامحُه كتسريحة شعره الذي عهدته أكرت يتدلى على جبهته العريضة فتائلَ من خيوط القنب. أما نظرة عينيه فللحق أقول أنه لا يمتلك القدرة أصلا على تلويَتِها بما يقتضي الحال، فهو أحول بالفطرة. عيناه في خصام أبدي، إحداهما مُشرّقة والأخرى مُغرّبة، تدير إحداهما للأخرى ظهرها كزوجتين ناشزتين لرجل واحد؛ ولكن بينهما أو فوقهما تتمركز دماغ عجيبة مفرطة الذكاء ساقت منذ زمن أنف المستر «رينج» عالم الآثار المراوغ، وتابعته عليه مس «بربارة» تلك الحية الرقطاء.

كانا يأتيان إلى بيوتنا الطينية في المخيم، وكنا نذهب نحن إلى فيلتهما في أريحا نشرب الشاي المعطر؛ ونلتهم البسكويت

المحشي بالكريم، والشوكولا اللذيذة. توزّعها مس بربارة بينما مستر رينج يتابعنا بعينه من النظارة البيضاء، يدرسنا عن كثب، يغربلنا، يحتفظ بالحبات السمينة ويلقي بالزؤان من النافذة أو من الباب؛ متخليًّا عن دماثته وابتسامته الدائمة، مُتنكّرا لقوله المكرر «إنه من بلاد الشمس التي تغيبُ طويلا تحت أكداس الغيم، ولكنها تشرق دائما وتسطعُ في النفوس». يقول هذا كلما انعطف على الحرية والانطلاق وتبنى المواهب الشابة التي نحن منها. محمود وأنا وآخرون لا يتعدون أصابع اليد الواحدة. كانت له فراسة عجيبة وأنف أشد عجبا يتقصى به عن الطلبة الأذكياء في المخيم تحديدا.

لهذا كان يغربلنا بحرص، ولم يجد كبير عناء في أن هذا الفتى الأحول أفضلنا على الإطلاق، لا بذكائه المفرط وحسب، بل بجديته وتصديقه البالغ حد الهوس أن في يد مستر رينج الحلول الجاهزة لكل شيء؛ حتى لعينيه المتنافرتين بأن تعودا إلى وضعهما الصحيح.

من هنا صار يردد أقوال عالم الآثار ويتغزل عن بعد بتلك البلاد التي تسطع فيها الشمس داخل النفوس. من هنا أسكره قول مستر رينج أن في انتظاره مستقبلا كبيرا، وأن أفضل الأسماء لياقة به

«أينشتاين» وصرنا نناديه في المدرسة بهذا الاسم. صرت أناديه به حتى بعدما نخلني مستر رينج وأفهمني بمودة أنني ذكي حقا؛ ولكن تنقصني مواهب كثيرة تقف سدا منيعا في طريق مستقبل مشرق كبير.

لم يزد عن ذلك ولكني أعرف أني كنت كثير الأسئلة، كثير الشك في معنى الشمس الذي يريد، وأيضا كثير المزاح، لا أكف عن الضحك وتوزيع النكات في جلسات لم أدرك آنذاك أنها كانت مدروسة وجادة ومقصودة، أنها كانت في عرف عالم الآثار وتابعته الحيزبون لتقرير المصير... مصيرنا. وإلا لكنت الآن جنبا إلى جنب مع «محمود». وربما كنت متجهّمًا، جامد السمات كأنما تَلقّى في التو نعي عزيز.

همَمْتُ أن أكسر حاجز الصمت وأناديه باسم العالم الذي ما زال يملأ الدنيا بذكره ويشغل الناس، ولكن يقيني بأنه قد تغير أربكي تماما. ألفيت رأسي ساحة خالية كنَستها ريح رعناء. هرب الكلام وعلي الاعتراف بأني لم أكن مسرورا بهذا اللقاء المصادفة. قلت لمجرد تحريك الهواء الذي كفَّ تماما عن الحركة وبات ثقيلا كالرصاص.

- أين أنتَ يا رجل؟!

وقبل أن أسمع منه جوابا، أيَّ جواب لمثل هذا السؤال التقليدي الفج؛ تساءلت إن كانت كلمة «رجل» تعني لديه شيئا محببا أم أنها كالعربية أضحت من التفاهات وسقط المتاع . أشار إلى الباحة التي تعج بالطلبة. مط شفتيه، بل مط السفلى لأن العليا لغلاظة تلك تبدو كخيط أسمر متسخ رسمته ريشة فنان مبتدىء. قال ببحة غير محببة على الإطلاق، ربما من طول الصمت، وربما لإحساسه بتفاهة السؤال:

- هنا.

تذكرت الحكمة التي كان يقولها لي مستر رينج «إن أنت طرحت سؤالا تافها، ستتلقى جوابا أتفه». ورغم إقراري بحقيقة أني إنما أدلق على هذا الشخص الواقف نفسي، فإن برودَهُ القاتلَ نثرَني مِزَقًا في البداية ثم عادَ ولملمَني بغير حرص.

نظرَ إلى ساعته المُذهَّبَة أو هكذا خُيّل إليَّ ثم تنهّد بمقدار. هذه الحركة كانت إيذانا بنهاية اللقاء قبل أن يدور حول نفسه ويذهب... بعد أن توارى استطعت أن ألملم كلماته الأخيرة، واستخلصت منها رقم الشارع والمنزل والساعة التي يمكنني أن أجده هناك إن

شئت... إن شئت؟! أرسلتُ عينين دب فيهما الشرر تبحثان عنه، ولما لم أره أقسمت بصوت مرتفع ربما سمعه من حولي، أنني لو كنت أعرف أني سألقاه في هذه الجامعة، في هذا البلد ما ارتحلت إليها حتى لو كان الثمن خسارتي الدكتوراه.

أقسمت ولكن في اللحظة التالية راحت كلماتُه الأخيرة تنثالُ في صدري كشلّال هادئ؛ فأحببت أن أراه وأذكره بتلك السنين التي قضيناها في المخيم. أذكره بأمه التي رحلت من عين السلطان مع الراحلين بعد حزيران، وحملت معها الترمس تبيعه في دكان صغير على طرف مخيم البقعة. لقد زرتها قبل أن أرتحل وسألتني عن ابنها الذي لم تره منذ عشر سنين؛ ولم يطمئنها عليه حتى برسالة. لقد طمأنتها كذبا أنى سألقاه وأقبّله عنها وأعود به إن استطعت.

لقيته حقا ولكني لم أقبّله، ولم يذكر أمه ولم يسأل عنها. ذلك الوغد ينسى أن لـه أمّا. ينسى أن سلامنا هناك ترحابٌ والمصافحة عناق، وأننا نملأ صحيفة يومية بالشوق قبل أن ندخل في صلب الموضوع. يجب أن أراه. إن لم أره فلن يكون للشهادة معنى. لن يكون لعودتي معنى إن لم أفرغ صدري من كل مافيه من طلقات الجفاء... غرسها في صدري ومضى.

لم أفاجأ بأناقة الفيلّا ولا بالزهور المحيطة بها من كل لون. لقد حدست بأنه يعيش في بحبوحـة، كيف لا وقد أغدق مستر رينج عليه الوعود قبل أن يحمله في حقيبته إلى بلاد الشمس لدراسة الفيزياء الذرية. إنه على أعتـاب أن يصبح عالما مشهورا بالفعل. المفاجأة كانت حين ضغطت الجرس وخرجت امرأة تحايلت على الزمن بشتى السبل. خدعتني فلم أستطع تحديد عمرها ولا أين رأيتها من قبل. نطقتُ اسمه بلهجة أوحت إليها بأن الصداقة بيننا حميمة لا تحتمل الانتظار أو التأجيل؛ بيد أنها راحت تدرسني عن كتب، ثم انفرجت شفتاها المصبوغتان وقالت:

ـ هل أنت كمال؟

أشرق وجهي بالفرح وأحسست أن الشمس التي لم أرها منذ وطئت هذي البلاد قد نفضت عن كاهلها الغيوم. أدخلت رأسها قليـلا وحين عادت تلتفت إلي كان وجهها ينطق باللؤم. ألقَت نظرة متأنية على ساعتها فألقيتُ نظرة مماثلة على ساعتي؛ وإذ اكتشفت أني تأخرتُ خمسَ دقائق استدرت قبل أن تفتح شفتيها تماما: سأعود غدا.

ابتسمت مشجعة وربما مندهشة من أن شابا مثلي صوحت بشرته شمس الشرق يفهم ويقدر قيمة الوقت، وقبل أن أستدير تماما لمحت فتاة شقراء رائعة الحسن تطل بوجهها من خلف المرآة، فندمت على أن عقارب الساعة قد قطعت تلك الدقائق الخمس كما تقطع الموسى المثلومة شعر الذقن. لوحت الفتاة بيدها وأكملت ما ضنت به المرأة علي.

- ألبرت في غرفة الأبحاث الآن، وهو آسف لتأخرك.

هززت رأسي أن لا بأس وأسعفني لساني بآيات من الأعذار له، لمحمود وقد صار اسمه ألبرت تيمنا باسم اينشتاين الأول. «لا بأس» قلتها في غياب القلب على الباب المغلق من دوني؛ ولكنها الآن جمرة حارقة تلتهم الصدر وأنا أمشي بالغريزة وحسب.

الشوارع تفقد أسماءها والوجوه مطلية بالشمع، والشمس التي تحدث عنها مستر رينج كثيرا أدركها النسيان فتأخرت عن الظهور. تأخرت كثيرا، أما هذه المصابيح الملونة فأعجز من أن تقودني إلى الفندق في شارع نسيت اسمه تماما؛ كأنما حذَفته من ذاكرتي ممحاة.

بعد طول سؤال اهتديت إليه. قلت لن يأتيني النوم هذي الليلة إن لم أكتب لأمي فكتبت: «أكتب إليك يا صديقتي والليل يهجم على هذه المدينة اللعينة، على هذا البلد اللعين. رغم تلك المصابيح الملونة التي لم أر ولم تري مثلها لا في عين السلطان ولا في مخيم البقعة، رغم هذه المصابيح يحل الليل على هذه المدينة بجيش مدجج بالفحم. لا تشغلى بالك كثيرا علي فأنا ما زلت بخير. ما زالت تشرق عليّ شمس حملَتها إليك هذي السطور. أنا بخير. ما بي قلقٌ عارض وحسب، سببه زميل قديم أنت تعرفين أمه ولا شك. إنها أم محمود بائعة الترمس في مركز توزيع المؤن في عين السلطان، وفي أحيان كثيرة كانت تبيع الماء القراح، أما الآن فأنت سترين حانوتها الصغير لو أنت ذهبت إلى مدخل البقعة من الطرف الجنوبي.

هناك يقع حانوتها وهي ما زالت تبيع الترمس وتبيع إبر الخياطة التي ما عادت عيناها من كثرة البكاء على ابنها؛ تسعفانها بدس الخيط في ثقوبها الصغيرة. إنها هناك ما زالت كما تعرفينها بثوبها الأسود، بعينيها المغلقتين على سر دفين، أو حرز حريز... أريد منك صديقتي أن تزوريها وتطمئنيها على أن ابنها محمودًا بصحة جيدة.

لم يتغير فيه شيء يذكر إلا أن اسمه صـار ألبرت. أعرف أن هذا الاسم سيحرق كبدها ولكن هذا أفضل من أن تظل أسيرة الوهم. اذهبى حال تصلك الرسالة وإن تأخرت فمن المحتمل أن أزورها قريبا بنفسي. إليك قبلاتي الحارة وأشواقي «ابنك المخلص أبـدا كامل».

قرأت الرسالةَ أول مرة وإذ تدفّقت إلي الراحة أعدت قراءتها مرات، فأمكنني بعدها أن أتنفس بانتظام وأنام. لو لم أقل ما قلت لانفجرت. يمكنني الآن الانتظار حتى الغد. إن لم أصادفه في الجامعة سأذهب إلى البيت هذه المرة في الموعد بالضبط؛ فتكون نظرة تلك المرأة إلى ساعتها فاقدة المعنى، كما ستضطر تلك الفتاة الحسناء إلى التدقيق في أعذارها أكثر.

سيكون الحديث بيننا عن أمه تحديدا. أضغطُ به مكامن الوجع فأرى إن كان ما يزال يشعر ويحس. هل تراه نسي ملامحها المنطفئة وثوبها الأسود؟ هل نسي المخيم وأيامه السوداء بعكس دقيق وكالة الغوث الذي كان في لون الجير المنطفئ؟

كان الطلبة في أروقة الجامعة وفي باحتهـا ينعفون كالنمل، نمل نظيف مرتب، يمشي بهدوء لا تمنعه البهجة من الانتشار في

مسامات هواء ناعم رشيق. هذه أجواء تحدّث عنها مستر رينج طويلا، وحلمنا بها في المخيم طويلا ودافع عنها محمود طويلا طويلا؛ حتى بدا لي حين التقيته أنه مد خرطومه وبالغ في امتصاص الرحيق المصفى بيد أنه لم يلفظ الشوائب بعد.

أرسلت عيني في كل اتجاه بحثًا عنه. سأميزه من بين هذي الآلاف المؤلفة. سأميزه وليست قامته القصيرة وحدها السبب؛ إنما هو الحدس وشيء في الخاطر مستور يرفع رأسه في حالات كهذه. بعد ساعة كاملة من البحث أدركت أني إنما أبحث عن إبرة في كومة من القش... حدست أنه غير ملتزم بهذي الجامعة تحديدا. إنما جاء إليها بالأمس لغرض طارىء.

رحبت بهذا الظن فالفيلا ما زالت في خاطري وكذلك تلك المرأة ذات الملامح الصارمة والوجه الذي أحسب أني رأيته من قبل. لو كان في الجامعة لاهتديت إليه حتما فالنمل الذكي لا تعجزه الحيلة في الوصول إلى بيدر خرب. إذن فهو هناك في البيت المُزنّر بالورود.

قبل أن أصل إلى البوابة ببضعة أمتار اندفع رجل سامق الطول منها إلى سيارته. لقد اشتعل رأسه شيبا. هذا حق ولكن هذا الوجه

المورد رأيته من قبل. متى وأين؟ وعندما استدرت لأعبَّ منه نظرة أخرى كان قد دخل السيارة؛ وتَربَسَ الباب وانطلق بسرعة الريح.

ذهب مسرعا ولكن وجهه ظل يحاصرني باطراد. تسمرت مكاني مستندا إلى البوابة المفتوحة، وقد أقنعتني الزيارة السابقة ووجه الرجل الخارج وتلك المرأة المتصابية أنني إنما أدخل حظيرة خنازير. تغلبت على ترددي ودخلت عالم الورد الملون. ضغطت الجرس ضغطة خفيفة فبرز لي بعد قليل وجه الفتاة. حال رأتني شلَحت عنها ابتسامتها الجاهزة، خلعت عنه جمالها الآسر كأنه قناع تهرع إليه في المناسبات. قالت بحدة:

ـ أنتَ أيضا.

كان صوتها نعيق بومة على خرابة مهجورة فاجأها طلق ناري أفزعها. طارت إلى الداخل بعدما أحكمت إغلاق الباب. من باب الحيطة نظرت إلى ساعتي ولما وجدت أنه الوقت الذي يناسب صديقي فَسَّرَ غبائي حركةَ الفتاة تلك على أنها طارت لإبلاغ صديقي القديم؛ وأنه لا بد قادم لاستقبالي، إذ ليس من اللائق أن يخذلني مرتين. هطل في صدري شوق عارم إليه. لا أدري أين

ذهب الكره والمقت. هيأت ذراعي كيما أتلقفه حال يفتح لي الباب. رحت أتسلى بالنظر إلى أزارار الورد حين فاجأني صوت غليظ شرس:

ـ أوه! أنت!

تغاضيت عن لهجتها بالعجب: كيف انفتح الباب بلا ضجيج. لقد اعتدت طويلا على نواح الأبواب الثكلى وزعيقها المجروح إن هي فُتحَت أو أغلِقت. إنها هناك تعلن عن حزنها ووجودها بشتى السبل، أما هنا؟ هذا عجيب. كيف يوافي صديقي النوم في الصمت المطبق؟ كيف لا يموت من رائحة هذا الورد والمزابل كانت منتشرة في المخيمات ولا تزال؟ إنني أغبطه على هذي النعمة حقا ولكني أيضا أشفق عليه.

قطع عليّ وجه المرأة التي تحايَلَت على الزمن خواطري. لم تكن هذه المرة تعتذر عن صديقي كما لم يكن يهمها الاعتذار. بدت وكأنما شحنت بطوفان من الحقد والغضب؛ رمتني بهما عيناها الجارحتان. رأيت هاتين العينين من قبل. رأيت هذه النظرة الموجعة، ولكن متى وأين؟ كان وجهها يمد لسانه ساخرا من أي كلام أو سؤال. بات الهرب فقط ما يشغلني ولكن كيف؟ الهرب

بات الحالة الوحيدة الصعبة والمشتهاة. أسعفتني من حيث لا تقصد حين قالت تدير عينيها إلى السماء الملبدة بالغيم:

ـ هل هناك موعد سابق؟

ورغم أن سؤالها كان يحمل في طياته النفي والرفض إلا أنني وجدت الجرأة إلى القول:

ـ هو موعد الأمس الذي لم يتحقق.

ونقرت على زجاج ساعتي، وأظن أني أطلقت ضحكة مبتسرة.

- ومحمود... أعني ألبرت حدد الساعة ولم يحدد اليوم، وهذه الساعة تناسبه.

رمتني بنظرة باردة وانفجرت من زاوية فمها النابت على حوافه الزغب الأشقر الناعم ابتسامة لها معنى واحد «أيها الفتى الأبله القادم من الشرق». قالت أخيرا وهي تمط شفتيها:

ـ ألبرت يخطىء كثيرا، ومن أخطائه أنه التقاك... هي مصادفة كما يقول بيد أنها من أخطائه الكثيرة.

تفجر الغضب من مسامات جلدي. بالكاد منعت نفسي من لطمها. وحين دققت النظر إلى وجهها، في ابتسامتها الساخرة بالذات، انبعثت شرارة صغيرة حملتني إلى عين السلطان، إلى تلك الفيلا الفخمة في أريحا، إلى تلك الجلسات المدروسة، فهتفت وأنا أكاد أضع إصبعي في عينيها:

- أنت بربارة.

لم أفطن إلى أن إصبعي تحاصر عينها تماما إلا حين ضربتني على يدي بغلظة وصفقت الباب. وربما لسذاجتي تعجبت لأول وهلة من أنه لدى اصطفاقه لم يزعق بذلك الصوت الذي يوقظني في المخيم ولو بعد منتصف الليل.

قبل أن أستدير عائدا إلى الفندق برز لي وجه ذلك الرجل الأشيب سامق الطول؛ فهتفت وأنا اقرع البوابة بقبضتي «إنه مستر رينج» وإلى هنا لم أستطع تحديد إن كان ما حدث يجعلني أكره محمودًا أم أحبه.

ركبني هاجس أن صديقي القديم في خطر. كيف؟ لا أدري بالضبط. المهم أنني وأنا أوازن كفتي الكره والحب رجح الحب كثيرا. إنه من تلك التربة السمراء حيث نبت. لقد ذاق الجوع

والعري والهوان وشرب الدموع حتى الثمالة. أشياء لا يمكن نسيانها حتى لو أراد. إنه مثلي تماما وأنا أحبه ولكن لا أدري بالضبط الذي جرى له حتى كاد ينكرني حين رآني! ما الذي جعله لا يخرج إليَّ حين زرته مرتين. ربما ذلك الرجل الأشيب هو السبب؛ وربما تلك المرأة المتصابية.

إنه مستر رينج ومس بربارة خطفا محمود لحظة ظهر اسمه في قائمة الأوائل؛ في فحص الشهادة الثانوية. لقد ذهب معهما باختياره. هذا حق ولكن بطريقة أشبه بالخطف، فقد حدثاه طويلا عن الشمس هنا وعن المستقبل العريض. لقد غسلا دماغه وربما لا يزال مغسول الدماغ.

لقد حاولا معي الشيء نفسه قبل يفزعهما مزاحي وأسئلتي الكثيرة حول معنى الشمس. الحق أني وقعت فريسة الندم حين حمل محمود حقيبته وارتحل معها بلا رجعة. افترسني الندم وقد ضيعت فرصة للدخول في منعطف؛ ومنه إلى عالم رحب كان يحلو لمستر رينج أن يسميه بعالم الحرية والانطلاق والبوح الصريح؛ بخفايا النفس دون خوف أو خجل...

عالم يضمن لإنسانه تكافؤ الفرص، وحين تخرجت بشهادة في هندسة البتروكيمياء وعينت مدرسا براتب زهيد أمعنت عضًّا في أصابعي ندمًا على أني لم أحذ حذو «محمود» وأسبح بحمد ذلك العالم؛ على مسامع مستر رينج والمس بربارة. ظل الندم يلاحقني إلى أن التقيت محمودًا أول مرة بعد غياب طويل؛ وإلى أن فتحت لي بربارة البـاب أول مرة أمس.

عندهـا أدركت أن الندم أحيانا يكون بمثابة بغلٍ اغترَّ بمجاورة الخيول وربطه معها إلى مذود واحد، لا يضع حافره الصلد على أرض الحقيقة والواقع؛ إلا حين يحاول الصهيل. بت أفهم الحرية والانطلاق وأتتبع بعيني تلك الشمس الباهرة، الشمس التي لم يقصدها مستر رينج وقد كان ينظر إلينا نظرته إلى عجول صغيرة؛ سيأتي عليها وقت تغدو أبقارا تمتليء ضروعها باللبن، وهو من سيحلبها ويرسلها إلى مصانع جاهزة لهذا الغرض، ولم تكن مهنة التنقيب عن الآثار في تل السلطان إلا قشرة رقيقة واهية يغطي بها غايات أكبر.

لقد اختطفَ «محمودًا» هذا ما أعرفه، وربما خطف غيره، وربما كان هناك ولا يزال أكثر مـن مستر رينج، أكثر من مس بربارة... يخطفون العجول ويفرضون عليها الوصاية، وحين تكبر

يحلبونها، ويستنزفون منها اللبن حتى في الخريف. قطعا يسمون هذا رعاية، ولكنها وصاية تفقد المرء كثيرا من حريته وانطلاقه، تفقده تلك الشمس التي تركض في سماء صافية بلا موانع.

اكتشفت أكثر أنني أحب «محمودًا». لأنه محاصر أحبه. ولكن كيف يمكنني ترجمة هذا الحب؟ قبل أن أهتدي إلى جواب طالعتني غرفتي في الفندق _حال فتحت الباب_ مقلوبةً ظهرا لبطن وأوراقي مبعثرة. يد عصبية وربما أكثر عبثت بأشيائي فتأكدت أن صديقي محمود في خطر وأنني أيضا في خطر. ربما لن تشرق علي أو عليه شمس اليوم التالي... هذا إن أشرقت أصلا.

تناولت واحدة من الأوراق المبعثرة وجلست طويلا، فكرت طويلا قبل أن أكتب « أمي العزيزة. صديقتي. أرجو ألا تكوني قد زرت أم محمود. إن وصلتك هذه الرسالة زوريها ولكن لتشتري منها الترمس، ولتدخلي لها خيطا في ثقب الإبره لتخيط كفنا لمحمود. لا تخبريها بذلك، ولكن زوريها واشتري منها الترمس وادفعي لها الضعف. أنا بخير. أقصد ما زلت بخير... لك تحيّاتي وأشواقي. ابنُك المخلص أبدا كامل».